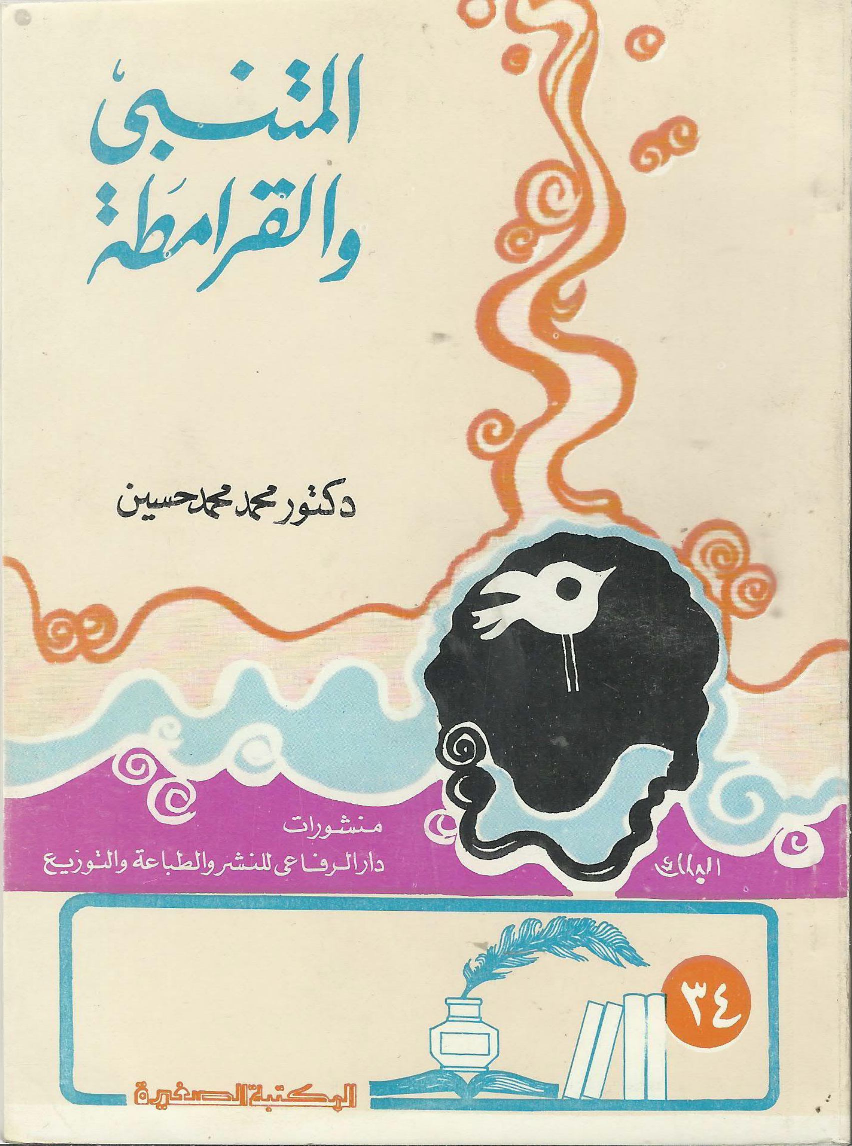

المتنبي والقرامطة
دكتور محمد محمد حسين
منشورات
دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع
٣٤
المكتبة الصغيرة

المكتبة الصّغيرة

٣٤

المتنبّي والقرامطة

الدّكتور محمّد محمّد حسين

أستاذ الأدب العربي

الطبعة الأولى

شعبان ١٤٠١ هـ

يونيه ١٩٨١ م

منشورات

دار الرفاعى للنشر والطباعة والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله . والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله . وبعد :

هذه محاضرة عن « المتنبى والقرامطة » . ألقيتها فى كلية الآداب بالجامعة الليبية ببنغازى فى مساء يوم السبت ٢١ من رجب سنة ١٣٨٣ لهجرة نبينا عليه الصلاة والسلام ، الموافق ٧ من ديسمبر سنة ١٩٦٣ لميلاد المسيح عليه السلام . ثم نُشرت فى المجلد الثامن عشر من مجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية سنة ١٩٦٤م . ألحقتُ بها زيادة فى اجمال ما ذهب اليه الباحثون المعاصرون بشأن القصة الشائعة التى تزعم أن أبا الطيب ادّعى النبوة فى صدر شبابه . وكانت هذه الزيادة استجابة لطلب الأخ الصديق الأستاذ عبد العزيز الرفاعى .

والدراسة الأدبية لا تعرف الكلمة الأخيرة ، لأنها ـ مع كل المحاولات التى تريد أن تخضعها لمناهج علمية ثابتة ـ يظل شطر كبير منها معتمداً على الخيال وعلى الذوق الشخصى وعلى قياس الأحداث وتعليلها بمقاييس الباحث نفسه فى السلوك وفى ردود الأفعال . وتظل بصمات الباحث الشخصية ظاهرة فى البحث ،

مهما يبذل من جهد فى التجرد منها . وتظل الدراسة الأدبية أولا وآخراً مزيجاً من الرياضة العقلية والفنيـــة ، ومحاولة لــكتابة قصة غاب كثير من عناصرها وأحداثها ، فملأنا فجواتها بالمنطق الذى يقوده الخيال ، ويظل ممتزجاً به ، يصعب تخليصه منه ؟

محمد محمد حسين

الرياض فى ١٥ من ذى الحجة سنة ١٤٠٠ هـ

المتنبى والقرامطة

شغل المتنبى الناس فى حياته وشغل النقاد بعد موته . وبالرغم من مرور ألف عام على اشتغالهم بحياته وبشعره ، لا يزال فيهما بعض الظواهر الغامضة التى تحتاج الى تفسير ، أو التى لا يزال مجال الدراسة مفتوحاً لمزيد من الفروض التى تفسرها . ومن أبرز تلك الظواهر ظاهرة تأخذ نظر المتصفح لشعر المتنبى منذ النظرة الأولى ، وهى الثورة العارمة التى تُغَشِّى شعره كله ، لا تكاد تخلو منها صفحة من صفحات ديوانه . وقد كان الناس يطمئنون الى أن هذه الثورة مظهر لعُجب وزَهو يشبه الجنون ، جعل المتنبى فى نقمة دائمة على الناس ، ملوكهم وعامتهم . وهى نقمة لا يبررها عندهم الا هذا الجنون . حتى صدرت عدة بحوث فى سنة ١٩٣٦م بمناسبة مرور ألف عام على وفاة المتنبى ، كان أبرزها وأسبقها الى الظهور كتاب محمود شاكر الذى أصدرته مجلة المقتطف فى عدد خاص فى أول ذلك العام ، ثم كتاب عبد الوهاب

عزام وكتاب طه حسين اللذان صدرا بعده ببضعة أشهر . وقد علل محمود شاكر ثورة المتنبى بأنه علوى النسب وأن العلويين أكرهوا جدّته التى نشأ فى حجرها ـ لسبب لا نعرفه ـ على اخفاء هذا النسب ، كما علله بكراهيته للعناصر الدخيلة التى تسلطت على الدولة وأفسدتها . وعلل طه حسين هذه الثورة بأنه كان داعية قرمطياً . ونفى عبد الوهاب عزام قرمطيته بأدلة ونصوص من شعره . أما نحن فنريد أن نضيف الى نفى قرمطيته أنه كان عدواً للقرامطة يسعى الى جمع الناس على حربهم وتنبيههم الى خطرهم . وقبل أن أبدأ كلامى فى الموضوع لا أرى بدّاً من التعريف بالقرامطة . فمن هم القرامطة ؟

القرامطة شعبة من شعب الباطنية أو الشيعة الاسماعيلية ، الذين برزوا على مسرح التاريخ الاسلامى فى أواخر القرن الثالث الهجرى ،والذين كانوا يتظاهرون بالدعوة لآل البيت وانصاف المظلومين من الظالمين والمحرومين من المترَفين ،

ويبطنون الالحاد وهدم الاسلام ، بل هدم العقائد الدينية كلها ، باستدراج الداخلين فى دعوتهم فى مراتب ودرجات سرية يسلخونهم فيها من عقائدهم، حسب ما يرونه من استعداد التابع لهم ، حتى ينتهوا به الى الكفر بكل الأديان والتحرر من كل التكاليف واباحة كل المحرمات .

وكتب التاريخ على اختلافها مملوءة بأخبار القرامطة ومحاربتهم للخلافة العباسية وغاراتهم المخرّبة على الأمصار والمدن ، وفظائعهم التى ارتكبوها مع قوافل الحجاج وفى الكعبة نفسها . ولكن نشأتهم وعقائدهم وحقيقة أهدافهم يحيطها كثير من الغموض ـ شأن كل الدعوات السرية ـ وأكثر ما نعرفه عنهم فى هذه الناحية مستمد مما كتب عن الشيعة الاسماعيلية الذين يطلق عليهم اسم الباطنية ـ والقرامطة كما قلنا شعبة منهم ـ نجد ذلك فى كتب الفرق ، مثل (الفرق بين الفرق) للبغدادى (المتوفى سنة ٤٢٩) و (التبصير فى الدين) لتلميذه وختنه عماد الدين الاسفرايينى (المتوفي

سنة ٤٧١) و (الفصل فى الملل والأهواء والنحل) لابن حـزم الأندلسى (المتوفى سنة ٤٥٦) و (الملل والنحل) للشهرستانى (المتوفي سنة ٥٤٨) . وقد ازدادت معرفتنا بعقائد الباطنية فى السنوات العشرين الأخيرة ، بعد ظهور عدد من الـكتب التى ألفهـا علماء هذه الطائفة ودعاتها . وان كان من الواضح أن هذه الـكتب لا تمثل الجـانب السري الهدام من المذهب . فهى مكتوبة للعامة ممن يراد استدراجهم وادخالهم فى المذهب . ولا تزال أكثر كتب الدعاة مجهولة أو مستورة فى خزائن الشُعَب المتخلفة الباقية من هذه الطائفة فى الشام واليمن وشرق افريقية وفى باكســتان والهند ، ولا سيما طائفة البُهرة(١) .

وأقــدم ما وصلنا فى الـكلام عن مذاهبهم هو ما كتبــه الحسن بن موسى النـوبختي (من علمــاء الشـيعة الامامية فى القــرن الثالث الهجري) فى كتابه « فرق الشيعة » . ومن أقدم ما وصلنا عن أخبار القرامطة (كشف أسرار الباطنية وأخبــار

القرامطة) لمحمد بن مالك بن أبى الفضائل الحمادي اليماني . ويعد هذا الكتاب أخطر ما كتب عن القرامطة والباطنية عامة ، لأنه ينفرد بين سائر ما كتب عنهم بأن مؤلفه قد دخل فى مذهبهم واندمج فى صفوفهم ، ثم انسلخ منهم حين عاين كفرهم وضلالهم ، وكتب كتابه تنبيهاً للمسلمين الى خطرهم(٢) .

ودعاوى الشيعة عموماً ـ ومنهم الاسماعيلية والقرامطة ـ تبدأ من يوم الغدير ـ غدير خُم ـ الذى يزعمون أن النبي صلى الله عليه وسلم عهد فيه الى علي عند عودته من حجة الوداع سنة ١٠هـ. وذهب غلاتهم الى أن النبوة قد سلبت من النبي منذ ذلك الوقت وأصبحت لعلي رضى الله عنه(٣) .

والشيعة كلهم ـ على اختلاف فرقهم ـ يقولون ان الامامة تورث ولا تكتسب ، وانها قد تسلسلت فى عقب علي ، كلما مات امام نص على من يخلفه بوحي من عند الله لا محل فيه لاجتهاد البشر .

وفساد دعاواهم يبدأ من ابن سبأ اليهودي الأصل، الذى يعتبر اليد المحركة من وراء الفتنة التي انتهت بمقتل عثمان رضى الله عنه ، والذى يعتبر كذلك اليد المحركة لفتنة علي ومعاوية حين اندس هو وصحبه فى صفوف جيش علي . فقد زعم أن روح الله حلت فى علي ، وأقحم على التشيع عناصر غريبة عن الاسلام حين زعم أنه حي لم يمت ، وأنه يعود فى آخر الزمان ليملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً(٤) . ثم كان ظهور الاسماعيلية الباطنية على يد يهودي آخر ، هو عبد الله بن ميمون القداح أخطر تطور خرج بالدعوة من النور الى الظلام ، ودخل بها فى سراديب الخفاء(٥) .

وتبدأ دعوى الاسماعيلية استحقاق الامامة بوفاة الامام جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبى طالب سنة ١٤٧ . فقد انقسم الشيعة من بعده الى فريقين:

(أ) الامامية : الذين سلسلوا الامامة من بعده

فى ابنه موسى الكاظم ، وفى أبنائه من بعده ، الى الامام الثانى عشر محمد بن الحسن العسكرى ، الذى دخل السرداب بزعمهم فى مدينة سامرا (شمال بغداد) سنة ٢٦٠ . ويظل فيه الى أن يعود فيملأ الدنيا عدلا كما ملئت جوراً .

(ب) والاسماعيلية : الذين قالوا بامامة اسماعيل بن جعفر الصادق وامامة أبنائه من بعده. وهم يزعمون أن جعفراً عهد بالامامة الى ابنه اسماعيل الذى توفي في حياة أبيه . وفى زعمهم أن الامامة تنتقل الى ابنه محمد بن اسماعيل لا الى أخيه موسى . وفيهم من يزعم أن اسماعيل لم يمت فى حياة أبيه ، ولكن أباه أذاع هذا الخبر تمويهاً على الخليفة العباسى . ومن الثابت تاريخاً أن محمد ابن اسماعيل بن جعفر الصادق ترك المدينة الى بلاد الديلم (جنوب بحر قزوين) . ولم يسمع عنه شيء بعد ذلك(٦) .

والواقع أن التاريخ لم يعرف شيئاً اسمه (فرقة

الاسماعيلية) حتى أواخر القرن الثالث ، عندما ظهرت حركة القرامطة فى البحرين والشام . وذلك بعد دخول الامام الثانى عشر ، محمد بن الحسن العسكرى السرداب ـ بزعم الامامية ـ سنة ٢٧٠ (٧) . وكان ظهور القرامطة ايذاناً بظهور الاسماعيلية على مسرح السياسة ، بعد انقطاع أخبار ولد اسماعيل بن جعفر أكثر من قرن ، يزعم الاسماعيلية أن أئمتهم كانوا فيه مستترين خوفاً من بطش العباسيين . وهذه الفترة هى المعروفة عند مؤرخيهم بدور الستر (وهو يبدأ بوفاة جعفر الصادق سنة ١٤٧ وينتهى بظهور عبيد الله المهدى بالمغرب سنة ٢٩٦) ولم يستطع الاسماعيلية أن يقدموا لنا صورة صحيحة متفقاً عليها بينهم عن أئمتهم فى هذه الفترة . فالخلاف بينهم كثير حول عددهم وأسمائهم (٨) .

ونشأة فرقة الاسماعيلية (التى تنتمى اليها الدولة الفاطمية) موضع خلاف بين مؤرخى السنّة والشيعة على السواء . والخلاف حول نشأة هذه

الفرقة يتصل اتصالا وثيقاً بالخلاف حول نسب الفاطميين ، الذى ظل موضع جدل بين الباحثين القدماء والمحدثين منذ ظهروا حتى الآن . ففريق من العلماء والمؤرخين يؤيد نسبهم الى الحسين رضى الله عنه ـ وهم قليل(٩) . وفريق آخر ينكر عليهم دعواهم ـ وهم الكثرة ـ ويرجعون نسبهم الى داعية خطير اسمه عبد الله بن ميمون القداح ، كان يتستر بالتشيع والدعوة لامام من آل البيت هو محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ، ويدعو سراً الى مذهب فلسفي الحادي لانكار الأديان والنبوة ، صاغه فى تسع مراتب سرية يتدرج بالداخل فيها الى أن ينتهى به الى انكار جميع العقائد والشرائع(١٠) . وجمهور المؤرخين ومؤلفو كتب الفرق ، وفيهم مؤرخون من الشيعة ومن الاسماعيلية على الخصوص ، متفقون على أن القرامطة شعبة من الاسماعيلية الباطنية (١١) . فيذكرون أن حماد قرمط الذى تنسب اليه فرقة القرامطة قد دخل فى دعوة الباطنية على يد عبد الله بن ميمون القداح أو على يد ابنه . وأن حماد قرمط هذا قد قام بأمر

الدعوة فى سواد العراق فنجحت دعوته وكثر أتباعه ، حتى اتخذ فى سواد الكوفة قرية بنى حولها سوراً منيعاً ، وجعلها دار هجرة نقل اليها أتباعه سنة ٢٧٧ فتحصنوا بها(١٢) . وعن حماد قرمط أخذ الدعوة أبو سعيد الجنابى مؤسس دعوة القرامطة فى البحرين ، وذكرويه بن مهروية زعيم القرامطة فى الشمال (شمال غرب العراق وبادية السماوة فى الشام) .

ثم ان القرامطة خرجوا على الفاطميين وحاربوهم . واختلف المؤرخون فى أسباب هذا الانشقاق فى صفوف الباطنية . فمنهم من يقول ان حمدان قرمط نفسه خرج على أبناء القداح سنة ٢٨٠(١٣) . ومنهم من يجعل خروج القرامطة على الفاطميين تالياً لظهور الفاطميين فى المغرب . ويقولون ان ذلك كان بسبب شكهم فى صحة نسبهم وفى صحة دعوتهم(١٤) . أما مؤرخو الاسماعيلية فيقولون ان رحلة عبيد الله المهدى أول ملوك

الفاطميين في المغرب من سَلَمِيَّة كانت بسبب انتقاض القرامطة عليه(١٥) .

وأية ما كان الأمر فقد ظل الناس الى عصور متأخرة لا يفرقون بين القرامطة والفاطميين . فقد روى أبو المحاسن بن تغرى بردى فى كتابه «النجوم الزاهرة» أن القرامطة بعد اختلافهم مع الفاطميين أرادوا أن يستعينوا عليهم بالخليفة العباسى (المطيع بالله) فرفض طلبهم وقال : « كلهم قرامطة وعلى دين واحد »(١٦) .

كانت الدعوة الباطنية بشعبتيها ـ القرمطية والفاطمية ـ دعوة هدامة ترمى الى افساد الاسلام ، بل الى هدم الدين جملة . وكانت تعتمد فى ذلك على خطة محكمة وعلى جهاز سري دقيق التنظيم . وكانت « سَلَمِيَّة » ـ بالقرب من حمص فى سورية ـ هى المركز الأول لقيادة هذه الحركة . وقد ظلت كذلك الى أن انتقلت منها القيادة الى شمال افريقية ثم الى مصر . وكانت أسرة ميمون القداح رأس

هذه الحركة تعيش فى « سلمية » فى هيئة تجار ، ويخفون حقيقتهم على غير المقربين من أتباعهم ، ويرسلون دعاتهم الى جميع البلاد الاسلامية للتبشير بقرب ظهور المهدى المنتظر(١٧) . أما جهاز الدعوة فقد كان يقوم على تقسيم العالم الاسلامي الى مناطق تسمى كل واحدة منها (جزيرة) ، مثل جزيرة مصر ، وجزيرة العراق ، وجزيرة فارس ، وهكذا . وعدد الجزر اثنتا عشرة جزيرة ، يقوم على كل منها رئيس للدعاة يسمى (حُجَّة) . وكان يساعد الحجة ثلاثون (نقيباً) . وكل نقيب منهم يتصل بأربعة وعشرين (داعياً) ، منهم اثنا عشر داعياً ظاهراً واثنا عشر داعياً محجوباً مستتراً . وبذلك نرى أن عدد أفراد هذا الجهاز يقرب من (٨٧٠٠) . وذلك باستثناء عدد آخر من الدعاة يعملون مع الامام فى مقره ، وتتكون منهم هيئة القيادة العليا . وقد قدر النوبختي عدد أتباعهم فى القرن الثالث فى الكوفة واليمن بنحو من مائة ألف(١٨) .

وكان لكل طبقة من طبقات هذا الجهاز عمل

خاص لا تتعـداه . فداعى النهـار ـ أو الداعى المكاسر ، أو الداعى المكالب ـ وهو أدنى طبقات هذا الجهاز ـ مثلا ، وظيفته التى لا يتعداها هي تشكيك الجمـاهير فى عقيدتهم وانتهـاز كل فرصة أمامهم لالقاء الأسئلة الدقيقة على العلماء والفقهاء . وهى أسئلة تدور حول مشـكلات الدين أو تفسير بعض المتشـابه من آيات القرآن . يلقى هذه الأسئلة فى براءة كأنه طالب علم يريد الافادة . فاذا ظهر عجز العالم والتف حوله النـاس يلتمسون عنده الجواب زادهم حـيرة بمزيد من الأسـئلة دون أن يجيب . مثل : لِمَ جعل الله السموات سبعاً ولم يجعلها أكثر أو أقل ؟ ولِمَ أوجب الغسل من المنى مع طهـارته واكتفى بالاستنجاء من البول مع نجاسته ؟ ولِمَ كانت الحـائض تقضى الصـوم ولا تقضى الصلاة ؟ وما معنى الحروف التى فى أوائل السور ؟ ومن هم حملة العرش الثمانية ؟.. الى مثل هذه الأسئلة التى يستطيع القارىء أن يراجع نماذج منها فى خطط المقريزى(١٩) . يوجه الداعى مثل هـذه الأسـئلة للعلماء كأنه يطلب الاسـتفادة ، ويوجهها للنـاس

مظهراً حيرته كأنه يشك فى العقيـدة . يفعل ذلك وهو فى الوقت نفسه يظهر النسك والتعبد . ويبدو أمام السني سنياً متطرفاً ، وأمام الشيعي شـيعياً متعصباً ، وأمام الصوفي صوفياً من الأقطاب . فاذا أنس من أحدهم ميلا اليه وتطلعاً الى الخروج من هذا الشـك بالعلم اليقين ، أوصله بعد مراوغة وتمنع الى داع أرقى منه مرتبة ، مهولا للفريسـة قبل أن يلقاه فى غزارة علمه وتضلعه الذى يزول عنده كل شك . كل هذا والغِـرُّ الذي وقع في شباكهم لا يعلم الصفة المذهبية للداعى . ولا يزال يتنقل بين الدعاة فى مختلف المراتب ، كلما استوثق منه داع نقله الى الأعلى منه ، وخطا به خطوة جـديدة فى المـكاشفة بأسرار المذهب(٢٠) .

ويـَختار الامام من رؤساء الجزر مجلسه الذي هو بمثابة القيادة العليا للدعوة وعلى رأسـه (داعى الدعاة) ، الذى يعتبر أعلى مرتبـة ظاهرة . والى جانب ذلك توجد مناصب أخرى سرية تعتبر ضمن هـذا الجهـاز الأسـاسى الذى يحيط بالامام . مثل

(حجة الامام) الذى لا يعرفه أحد حتى داعى الدعاة نفسه ، و (باب الأبواب) الذى لا يعرفه الا الامام نفسه ، (وداعى البلاغ) . وأعمـال هذه الرتب ووظائفها وأسـماء الذين شغلوها لا يزال سراً لم يكشف عنه البحث حتى الآن(٢١) .

وكانت الدعوة تجرى على نسق الجمعيات السرية كالماسونية فى مراتب متدرجة فى الأهميـة عددها تسع . يتنقل فيها التابع طبقاً لاستعداده ولثقـة القـائمين على الدعوة فى صدق استجابته واخلاصه وقدرته على كتمان الأسرار . ويقطع على نفسه عند دخـوله فى الدعوة الأولى عهداً يتعهد فيـه (بأن لا يفشى لهم سراً ، وأن لا يظاهر عليهم أحداً ، وأن لا يطلب لهم غيـلة ، وأن لا يكتمهم نصحـاً ، ولا يوالى لهم عـدواً) . ثم يطالبـه الداعي بعد ذلك بمبلغ من المال يقدره ، حسب ما يعرفه من حالتـه المالية ، وهو رسم الدخول فى الدعوة(٢٢) .

وقد أورد لنا المؤرخون المتأخرون مثل النويرى

والمقريزى مما أدركوه من بقايا تراث الشيعة شذوراً ضافية من محتويات الدعوة السرية وتفاصيلها . والذى يقرأ ما جاء فيها يدرك بوضوح أن الدعوة الباطنية تذهب الى أبعد من التبشير بالمذهب الفاطمي والدعوة لآل البيت . فهى تستحيل في آخر الأمر الى عقيدة فلسفية متحررة مشبعة بالالحاد وانكار الديانات كلها(٢٣) .

وقد كان التأويل هو الباب الذى يدخل منه الباطنية الى أغراضهم الهدامة . ذلك أنهم يزعمون لأتباعهم أن لكل ظاهر محسوس تأويلا باطنياً لا يعرفه الا الراسخون فى العلم وهم الأئمة . وعنهم وحدهم يؤخذ هذا العلم الذى يرثونه خلفاً عن سلف . وزعموا أن علم الباطن من عند الله ، خص به علي بن أبى طالب ، فخص النبي بالتنزيل وخص علياً بالتأويل(٢٤) . وورث الأئمة من نسله التأويل. والباطنية يشتركون مع فرق الشيعة الأخرى فى ولاية الامام (أى معرفته والانقياد التام له واعتقاد عصمته) ويجعلونها أساساً للعبادات كلها لا تصح

بغيرها(٢٥) . ولكنهم ينفردون دونهم بما يضفونه على الامام من صفات لا تعرفها فرق الشيعة الأخرى ، وهى صفات ترفع أئمة الشيعة الباطنية الى مرتبة لا تكاد تمت فيها للبشرية بصلة . ففى تأويلاتهم الباطنية أن الامام هو (وجه الله) و (يد الله) و (جنب الله) ، وأنه هو الذى يحاسب الناس يوم القيامة فيقسمهم بين الجنة والنار . وهو (الصراط المستقيم) و (الذكر الحكيم) و (القرآن الكريم)(٢٦) وتأويل الصلاة عندهم هو الاتجاه القلبى للامام . وتأويل الصوم هو عدم افشاء أسرار الدعوة . وتأويل الحج هو زيارة الامام(٢٧). وجعلوا أسماء الله الحسنى التى جاءت فى القرآن الكريم أسماء لما سموه (العقل الكلي) زاعمين أنهم ينزهون الله عن جميع ما يليق بمخلوقاته من الأسماء والصفات . وأطلقوا على (العقل الكلى) اسم (المبدَع الأول) أو (السابق) . وهو فى زعمهم المرموز اليه فى القرآن ب (القلم) . ثم قالوا ان (العقل الكلى) أبدع (النفس الكلية) أو (المبدَع الثانى) أو (التالى) ، وهو فى زعمهم المرموز اليه فى القرآن

بـ (اللـوح المحفوظ) وقالوا ان (اللـوح) له صـفات (القلم) نفسـها ، وهي أسماء الله الحسنى ـ جل وعلا ـ ولكن القلم أفضل بالسبق . وقالوا ان (القلم واللوح) أو (السابق والتالى) اشتركا فى ايجاد المخلوقات . ومن هذا نرى أن كل ما يقوله المسلمون عن الله سبحانه وتعالى خلعه الباطنية على (العقل الكلى) . ثم ذهبـوا ـ حسب عقيـدتهم فى المثل والمثول ـ الى أن العقل الكلى فى العالم العلوي يقـابله الامام فى العـالم الجسماني . فكل صفات (العقل الكلى) هى أيضاً صفات للامام . لأن الامام (مَثَل) للعقل الكلى . فالامام اذن هو الواحـد الأحد الفرد الصمد المنتقم الجبار .. الخ . ويبدو ذلك واضحاً جلياً فى شعر شعرائهم الذى مدحوا به الأئمة(٢٨) .

وواضح من ذلك كله أن عقـائد الباطنية مزيج عجيب من المذاهب والآراء الفلسـفية القـديمة . لذلك كان من أصَحّ ما وُصفت به أهـداف هـذه الدعوة ما قاله رينهارت دوزى R. DOZY فى برنامج

عبد الله بن ميمون حين وصفه بأنه يهدف الى الجمع بين أحرار المفكرين الذين لا يرون فى الدين سوى وسيلة لاستعباد الشعوب ، وبين الغلاة من جميع الطوائف . وأن يجعل من المؤمنين السذج آلات صماء تمد المتشككين بالقوة ، وأن يتخذ من هذا الجهاز الضخم وسيلة لرفعه أو رفع أبنائه فى الوقت المناسب الى الملك . لذلك لم يبحث عبدالله بن ميمون عن أنصاره الحقيقيين بين صفوف الشيعة الخلص ، ولكن بين الثنويين وطلاب الفلسفة اليونانية . ولم يكن يعتمد الا على الطائفة الأخيرة . واليهم وحدهم كان يفضى بسره ، وهو أن الأئمة والأديان والاخلاق ليست الا ضلالا وسخرية ، وأن باقى البشر ــ أو الحُمُرَ كما كان يسميهم ــ ليسوا أهلا لفهم هذه المبادىء . وكان يحرص أشد الحرص على أن لا يتجاوز المتدينون الذين يخدعون بدعوته ويخلصون له الطاعة المرتبة الأولى من دعوته(٢٩) .

أصبح أتباع الدعوة الباطنية ــ والقرامطة منهم على الخصوص ــ قوة رهيبة تبعث الرعب فى القلوب

منذ القرن الرابع . ففاضت كتب التاريخ بأخبار غاراتهم الوحشية المدمرة على المدن الآمنة وعلى قوافل الحجاج . ومن أفظعها ما رواه ابن الأثير فى حوادث سنة ٣١٧ من غارة أبى طاهر القرمطي على مكة يوم التروية ـ وهو اليوم الذى يسبق وقفة عرفة وفيه يتجمع الحجاج فى مكة للخروج الى منى ـ ونهبه الحجاج وقتلهم فى المسجد الحرام وفى داخل الكعبة ، وقلع الحجر الأسود وانفاذه الى هجر(٣٠) ، وقلع باب البيت والميزاب ، وطرح القتلى فى بئر زمزم وقسم كسوة الكعبة بين أتباعه(٣١) .

وزاد فى خطورة الباطنية أنهم كانوا يعتصمون بجهاز دقيق التنظيم يعتمد على تخطيط محكم . فكانوا يعيشون فى ستر ، لا يعرف أحد حقيقة مذهبهم . وعندما تواتي الفرص كان يظهر للناس أن عدداً كبيراً منهم يعملون في بلاط الأمراء والخلفاء ويندسون بين صفوف العامة دون أن تعرف حقيقتهم ، فكانوا في مراكزهم هذه يمهدون السبيل لسيادة دولتهم في انتظار الوقت الملائم(٣٢) .

والواقع أن سلوك الفاطميين والقرامطة كما تمثله كتب التاريخ من أقوى الدلائل على عدائهم للاسلام والمسلمين . فمن ذلك جرائم القرامطة الوحشية التى تصور تعطشاً الى دماء المسلمين . ومنه اجتماعاتهم الصاخبة التى يبيحون فيها نساءهم لرفقاء الدعوة ، الى جانب ما شاع من اباحتهم اللواط(٣٣) . ومنه توسع الفاطميين فى استخدام اليهود والنصارى ، وفى توليتهم الوزارة وتحكيمهم فى رقاب المسلمين وبذلهم غاية التسامح لهم والتكريم ، في الوقت الذى كانوا يُضيِّقون فيه على أهل السنة الى حد الاضطهاد . حتى لقد قال شاعرهم (الرضى بن البواب) حين عظم نفوذ اليهود وشغلوا مناصب الدولة فى عهد المستنصر ، وكانت أُمه أمة فى بيت أبى سعيد التسترى اليهودي(٣٤) .

يهود هذا الزمان قد بلغوا
غاية آمالهم وقد ملكوا
العز فيهم والمال عندهمو
ومنهم المستشار والملك

يا أهـل مصر لقـد نصحت لـكم
تهـوّدوا فقـد تهـود الملك

ومما ترويه كتب التاريخ فى هذا الباب قصة المرأة التى عرضت للعزيز بن المعز فى موكبه مادّة يدها بورقة كأنها ظُلامة . فلما فضها وجد فيها : (بالذى أعز اليهـود بمنَشّا والنصارى بعيسى بن نسطوروس ، وأذل المسلمين بك ، الا ما كشـفت ظلامتى) ـ وكان العـزيز قد ولاهمـا الوزارة ـ وطلبوا المرأة فاذا هي هيكل من جريد النخل(٣٥) . ومما تحفظه كتب التاريخ تنصيب الحاكم بأمر الله خالَيه النصرانيين بطريركين لطائفتيهما فى بيت المقدس وفى القاهرة(٣٦) .

وما ترويه كتب الفرق عن حرصهم الشديد على كتمان دعوتهم وعدم تصريحهم للعـامة بعقيدتهم ، واستعمالهم أبجدية خاصة في تدوين أسرارهم ، مع تلونهم وظهـورهم فى كل بيئـة بما يناسبها ، وتقـربهم الى كـل جمـاعة بمـا يلائم عقـائدهم

وطبائعهم ، كل ذلك يؤكد أنهم أصحاب دعوة سرية هدامة ، وأن أهدافهم الحقيقية تختلف عن ظاهر اقوالهم وأعمالهم(٣٧) .

★★★

هؤلاء هم الباطنيةوالقرامطة كما صورتهم كتب التاريخ والفرق وما ظهر للناس من كتبهم . فأين مكان المتنبى من هذه الصورة ومن هذه المبادىء ؟

لم تتجه عناية الذين أرخوا للمتنبى من الأقدمين الى هذه الزاوية من حياته وشعره ، فقد كان مذهب السلف فى التراجم والتاريخ يقوم على رواية ما يروون من أخبار يسندونها الى رُواتها ، على علاتها وعلى اختلافها وتعارضها . لأنهم كانوا يرون أن العُمدة فى صحة هذه الأخبار أو فسادها هو صدق رواتها وتحرّيهم ، أو كذبهم وترخّصهم ، وليس للعقل عمل فى ذلك . فقد يكون أبعد الأخبار ن المعقول المألوف هو أدناها الى الصدق ومطابقة لواقع . وقد يكون أقربها الى المألوف هو أبعدها

عن الصدق والصحّة . ويتمثل مذهبهم هذا فيما ذكره الطبري في مقدمة تاريخه حين قال :

« وليعلم الناظر فى كتابنا هذا أن اعتمادى فى كل ما أحضرتُ ذكره فيه ، مما شرطت أنى راسمه فيه ، انما هو على ما رويتُ من الأخبار التى أنا ذاكرها فيه، والآثار التى أنا مُسنِدها الى رُواتها فيه ، دون ما أُدرك بحُجَج العقول واستُنبط بفِكَر النفوس ، الا اليسير القليل منه . اذ كان العلمُ بما كان من أخبار الماضين وما هو كائن من أنباء الحادثين غيرَ واصل الى من لم يشاهدهم ولم يدرك زمانهم الا باخبار المخبرين ونقل الناقلين ، دون الاستخراج بالعقول والاستنباط بفِكَر النفوس . فما يكن فى كتابى هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يَعرف له وجهاً من الصحة ولا معنى فى الحقيقة ، فليعلم أنه لم يُؤتَ فيه من قِبَلِنا ، وانما أُتِيَ من قِبَل بعض ناقليه

الينا . وإنَّا انما أدّينا ذلك على نحو ما أُدّي الينا . »

وبسبب مذهبهم هذا ، الذى أوضحه الطبري فى مقدمة تاريخه ، حفظوا لنا كل ما تردد فى عصورهم من أخبار ، تاركين لنا تمحيصها سَنَداً ومتناً . وبذلك اتسعت مذاهب المحدثين في ذلك واختلفت نتائج بحوثهم . ولو أن الأقدمين اختاروا بأذواقهم وعقولهم واستنباطهم احدى الروايات لضاع علم كثير ، ولفرضوا علينا آراءاً لا يتفق الباحثون فى الاجتماع عليها .

هذا هو مذهبهم فى دراسة التاريخ . أما مذهبهم فى دراسة الأدب فقد كان يقوم على دراسة النص ، والاستطراد فى شرحه الى ما يفسره وما يتصل به من تاريخ وفلسفة ولغة ونحو ونقد . وكلها علوم تقوم على الرواية ، فيما عدا النقد الذى يعتمد على الذوق . وكان هذا المذهب الذى نسميه اليوم استطراداً مذهباً مقصوداً يستهدف

التكامل فى ثقافة دارس الأدب ، يتعرف من خلاله على علوم العصر ومعارفه المختلفة . وهو ما تُبرزه كلمة ابن خلدون المشهورة عند تعريفه للأدب فى مقدمته حين قال انه (الأخذُ من كل علم بطَرف). وقد عاد بعض القائمين على الدراسات التربوية فى الغرب يتكلمون اليوم عن ضرر التخصص الضيق الذى يحصر الطالب فى فرع من الدراسة لا يتعداه، ويطالبون بالثقافة المتكاملة التى تجمع بين الآداب والفنون والعلوم والتى لا تحصر المتخصِّص فى فرع تخصصه وحده .

ظلت الدراسة الأدبية تسير على ذلك النحو ، حتى نشأ عندنا فى القرن الأخير ما سميناه « تاريخ الأدب » بمناهجه الثلاثة المعروفة : المنهج التاريخي والمنهج النفسى والمنهج النقدي ، نقلا عن الأوربيين فى دراساتهم لآدابهم وفى دراساتهم لتاريخ الأدب العربي والفكر الاسلامي ، ضمن ما يقوم به المستشرقون من دراسات اسلامية تحاول أن تكشف

عن الأصول الفكرية والاجتماعية والسياسية فى الشعوب الاسلامية التى ارتبطت بها مصالحهم .

وكانت هذه الدراسة المستحدثة لتاريخ الأدب العربي تعتمد على دراسة النص فى ظل المؤثرات التاريخية والسياسية والاجتماعية والثقافية التى أنتجته ، وفى ظل دراسة السيرة الشخصية للأديب ، الذى تركت انفعالاته وعواطفه وأحاسيسه الظاهرة والباطنة بصماتها فيما كتب . وكانت هذه الدراسة تحاول ، قدر الاستطاعة ، أن تستخرج القصة الكاملة للنص ولكاتبه ولعصره ، بمقابلة النصوص الأدبية والتاريخية والسير الشخصية بعضها ببعض، لتكمل ما فى بعضها من نقص بما فى بعضها الآخر مما يسد هذا النقص ، ولكي تصل الى الحقيقة حين تتعارض هذه الأصول ، وتملأ ما فى الصورة العامة من فجوات ، بمزيج من الخيال والمنطق .

فى ظل هذه الدراسة المستحدثة ظهرت دراسات تحاول أن تعلل ظاهرة السخط والثورة التى تملأ

ديوان المتنبى . فذهب بلاشير الى أن المتنبى لم يكن قرمطياً ، ولكنه تأثر بآراء القرامطة(٣٨) . وذهب ماسينيون الى أنه كان قرمطياً(٣٩) . واتبع طه حسين رأي بلاشير وبالغ فيه ، فبنى كتابه عن المتنبى على أنه كان داعية قرمطياً ، وأنه خان القرامطة في آخر أيامه، فكان ذلك سبب قتله أو من أسبابه . وناقش عزام أدلة الذين ذهبوا هذا المذهب ، وانتهى الى أن قرمطية المتنبى دعوى يعوزها الدليل(٤٠) .

وذهب محمود شاكر فى كتابه عن المتنبى الذى نشرته مجلة « المقتطف » فى عدد خاص سنة ١٩٣٦م وأعاد نشره سنة ١٣٩٧هـ (١٩٧٧م) الى أنه كان علوي النسب ، اضطره العلويون وأكرهوا جدته على اخفاء هذا النسب ، بعد أن فرقوا بين الزوجين، أبيه وأمه ، لأسباب مجهولة . وبنى بحثه على ذلك . ووجَّه كل ما فى شعره من ثورة الى أنه صدى لمكايد العلويين من ناحية ، ولعصبيته العربية وكراهيته للأعاجم الذين تسلطوا على الدولة وأفسدوها من ناحية أخرى . أدار ثورته السياسية على هذا المحور،

وأدار حنينه وأشواقه وأحزانه على محور آخر ، هو حبه لخَولَةَ أختِ سيف الدولة وفراقه لها حين فارق اخاها ، ثم موتِها وهو بعيد عنها .

ومع ما فى شعر المتنبى من الدلائل التى تنفى علويته ، وفى مقدمتها الاعتداد بأعمال الناس دون أنسابهم ، فقد كان محمود شاكر أول من فتح الباب بين أدباء العرب المعاصرين للبحث عن علة لشعر المتنبى الثائر والمعارك التى خاضها مع خصومه ، غَيرِ ما كان يتردد فى كتب الأدب القديم والحديث من تعليل ذلك بترفع المتنبى وصلفه وغروره ، الذى جرّ عليه كل ما عاناه من متاعب . وكان أول من أدار حياته وشعره حول هدف سياسى رفيع ، ونزّهه عن أن يكون مريض النفس حقوداً حسوداً . وكان فى الوقت نفسه أول من ناقش دعوى ادعائه النبوّة التى روت كتب التاريخ والأدب أنها كانت سبب حبسه فى أول حياته ، ودلل على فسادها . ووافقه فيما ذهب اليه

عبد الوهاب عزام في كتـــابه الذى صدر فى العام نفسه بعد ذلك بأشهُر .

أما نحن فنرجح أن المتنبى كان عدواً للقرامطة خاصـــة ، وللباطنيـــة على وجه العموم ، وأنه ظل يناصبها العداء ، وظلت هي تتربص به وتكيد له ، حتى ظفرت به وقتلته . ونحن نعتمد فى حكمنا هذا على تدبر شعره فى ضوء ما عرفناه عن الباطنيـــة والقرامطة ، وفى ضوء ما نعرفه عن ظروف عصره السياسية والاجتماعية ، وفى ضوء ما يفضى اليـــه تمحيص الروايات المتضـــاربة التى وصلت الينا عن حياته .

فالقيم التى مجدها المتنبى فى شعره تتعارض مع مبادىء الباطنية والقرامطة ، بل هى تناقض المبدأ الأساسى الأول فى النظرية الشيعية ، وهو «الولاية». والمقصود به عندهم كما قـــدمنا هو ولاية الامام . فيجب على الشيعي أن يعرف امام عصره وأن يؤمن بامامته ، بكل ما هو معـــروف عندهم من صـــفاف

الامامة ، وفى مقدمتهــا العصمة ، وأن يخلص له وينقاد لأوامره . والولاية عندهم ركن أســاسى من اركان الدين ، بل هى الركن الأول الذين تبطـل ببطلانه بقيــة الأركان . والباطنيــة ــ ومنهـم القرامطــة ــ يغلــون فى ذلك غلواً يخرجهــم عن الاسلام الى الشرك كما رأينــا . فالامام عندهم له صفات الرسل . بل له الصفات التي يجعلها المسلمون من أسماء الله الحسنى ــ جل وعلا ــ والامام لا يبلغ هذه المرتبة بالاجتهاد فى تزكية نفسه وتطهيرها ، ولكنه يرثها بنص من الامام السابق الذى يعتمد فى ذلك على الوحي . فالنظرية الشيعية ــ والباطنيــة على وجه الخصوص ــ تعتمد على الوراثة ولا مكان فيهــا للــكسب . فسبيل الشيعي الى المثل الأعلى هو التغنى بآل البيت الذين هم سنده وعدته وذخره ، والتعلــق بهم ، والتفــانى فى الانقيــاد للامام . وشــعر المؤيــد فى الدين داعى الدعاة مثــل حي لتصوير هذه القيم . وقد وصف ذلك الشاعر الذى كان يشغل أكبر منصب من مناصب الجهاز الظاهر فى الباطنية الفاطميــة ، مقابلته الأولى للخليفــة

الفاطمي المستنصر وصفاً تبدو فيه هذه القيم في أجلى صورها ، فقال فى كتابه (السيرة المؤيدية)(٤١) :

« وكنت فى مسافة ما بين السقيفة الشريفة ، والمكان الذى ألمح فيه أنوار الطلعة الشريفة النبوية . فلم تقع عينى عليه الا وقد أخذتنى الروعة وغلبتنى العَبرة ، وتمثل فى نفسى أننى بين يدي رسول الله وأميرِ المؤمنين ماثل ، وبوجهى الى وجهيهما مقابل . واجتهدت عند وقوعى على الأرض ساجداً لولى السجود ومستحقه أن يشفعه لسانى بشفاعة حسنة بنطقه ، فوجدته بعجمة المهابة معقوداً وعن مزية الخطابة معزولا ... ومكثت بحضرته ساعة لا ينبعث لسانى بنطق ولا يهتدى لقول . وكلما استرد منى الحاضرون كلاماً ازددت اعجاماً ، ولعقبة العي اقتحاماً . وهو ــ خلد الله ملكه ــ يقول: دعوه حتي يهدأ ويستأنس . ثم قمت وأخذت يده الكريمة فترشفتها ، وتركتها على عينى وصدرى ، ودعيت . وخرجت » .

أما المتنبى فهو يعول فيما يتغنى به من قيم على الكسب ، ولا يقيم وزناً للوراثة . بل يصرح بأن الأحساب لا تغنى عن صاحبها شيئاً اذا لم يكن صاحب الحَسَب متصفاً بالخُلق الذي يصدق نسبه ويزكيه . فالذين يتقاربون في الطبائع والخُلُق هم الأقرباء ولو تباعدت بينهم الأنساب . والذين يتباعدون فى الطبائع والأخلاق ليسوا بأقرباء وان جمعت بينهم الأنساب . فالعلوي عند المتنبى علوي بأعماله لا بنسبه . يقول في قصيدة مدح بها أحد أشراف العلويين فى الرملة ، بعد تمنع من جانبه ، والحاح من والى الأخشيديين فى المدينة(٤٢) :

نصرت علياً يا ابنه ببواتر
من الفعل لا فَلٌ لها فى المضارب

اذا لم تكن نفس النسيب كأصله
فما ذا الذى تغنى كرام المناصب

وما قَرُبت أشباهُ قوم أباعد
ولا بَعُدت أشباه قوم أقارب

ويقـــول من قصـــيدة فى مـــدح كافـــور الاخشيدي(٤٣) :

وآنــف مـــن أخــى لأبى وأمى
اذا ما لم أجــــده من الكرامِ
أرى الأجـــداد تغلبهــا كثــيراً
عـــلى الأولاد أخــــلاقُ اللئامِ
ولست بقــــانع من كل فضــــل
بأن أُعـــزَى الى جَـــد هُمامِ
عجِبتُ لمــــن لــه قَــدٌ وحَــدٌ
وينبــو نبــوة القَضِمِ الكَهامِ
ومــن يجــد الطــريق الى المعــالى
فــلا يــذر المطيَّ بــلا سنامِ
ولم أر فى عيــوب النــاس عيبــاً
كنقص القــادرين عــلى التمامِ

وتتلخص القيم الخلقية التى مجدها المتنبى وملأ بها شعره فى صفات العفة المترفعة عن الشهوات ، والمروءة والفتوة والاباء وتحمل تكاليف الجهــاد . وهي كما رأينا صفات لا يقيم لها القَـرمطي وزناً .

فالداعي الباطني يحصر كلامه في التغني بالامام وفي جمع القلوب عليه . وهو يرى أن هذه القيم الخلقية لا تغني عن صاحبها شيئاً اذا لم يتول الامام. فاذا تولى الامام فالانحراف عنها ليس بذي خطر . بل شريعة الباطنيين والقرامطة تبيح لأتباعها المحرمات وتسقط عنهم التكاليف كما رأينا .

يقول المتنبي في احدى قصائده الشامية في أنطاكية(٤٤) :

انّي على شغفي بما في خُمْرها
لأعف عما في سرابيلاتها

وترى المروءةَ والفتوةَ والأبو
ة فيَّ كلُّ مليحة ضراتِها

هن الثلاث المانعاتي لذتي
في خلوتي لا الخوف من تبعاتها

ومَطالب فيها الهلاك أتيتُها
ثبتَ الجَنان كأنني لم آتها

ويقول في احدى كافورياته(٤٥) :

وللسر مني موضع لا يناله
نديم ولا يُفضِي اليه شراب

وللخَود مني ساعة ثم بيننا
فلاة الى غير اللقاء تُجاب

وما العشق الا غِرة وطماعة
يعرّض قلب نفسه فيصاب

وغيرُ فؤادي للغواني رَمِيّة
وغيرُ بناني للزُجاج رِكاب

تركنا لأطراف القنا كل شهوة
فليس لنا الا بهن لِعاب

أعزّ مكان في الدّنا سرجُ سابح
وخير جليس في الزمان كتاب(٤٦)

ويقول من قصيدته التي مدح بها دَلّير بن لشكَروَزّ قائد جيوش الخلافة لانجاد الكوفة(٤٧) :

مُحِب كَنَى بالبيض عن مرهفاته
وبالحسن في أجسامهن عن الصقل

والسمر عن سمر القنا غير أنني
جناها أحبائي وأطرافها رسلي

مت فؤاداً لم تبت فيه فضلة
لغير الثنايا الغُرِّ والحدق النُّجل

يني أنل ما لا يُنال من العلا
فصعب العلا في الصعب والسهل في السهل

يدين لقيان المعالي رخيصة
ولا بد دون الشَّهد من ابر النحل

والمتنبي مع ذلك لم يمدح من العلويين الا رجلين ، أحدهما العلوي الذي كان يقيم في الرملة، الذي أشرنا الى أبيات من القصيدة التي مدحه بها ، والآخر هو محمد بن عبد الله العلوي الذي كان يسكن الكوفة . وقد مدحه في صباه قبل أن يرحل عن العراق الى الشام(٤٨) .

بل نحن على العكس من ذلك نجد في شعره تعريضاً ببعض العلويين وتهكماً بهم . فهو يتهم بعض العلويين في (طَبَريَّة) بأنهم أدعياء ، فيقول

من قصيدة له فى مدح التنوخيين بالشام . وكان قد رحل عنهم الى طبرية . ولكنه لم يلبث أنعاد ساخطاً على العلويين الذين بها(٤٩) :

لولاك لم أترك البحـــيرة والغَـــ
ـــورُ دفىء ومـــاؤها شَـــبِم(٥٠)

ثم يقول بعد أبيـــات وصف فيها جمال البحـــيرة وما يحفها من مناظر خلابة :

يشـــينها جريهـــا عـــلى بلـــد
تشـــينه الأدعيـــاءِ والقُـــزُم

ويقول فيهم من قصيدة أخرى مدح فيها الحسن ابن عبد الله بن طغج ـ وهو ابن أخي الاخشـــيد ـ في الرملة(٥١) :

وفارقت شر الأرض أهـــلا وتربة
بهـــا علوي جَدُّه غـــيرُ هاشمِ

ويقول في التعريض بآخـــرين يدَّعـــون النسب العلوي ، فيتهكم المتنبى بجهلهم ، لأن الذى يدَّعون

الانتساب اليه ليس له نسل(٥٢) :

أماتكُمْ من قبل موتكم الجهل

وجركم من خنة بكم النملُ

ولو كنتمُ ممن يدبِّر أمرَه

لما كنتمُ نسلَ الذى ماله نسلُ

ويقول ، حين بلغه أن بعض مدعى العلوية قد اعدوا له كميناً فى (كفر عاقب)(٥٣) :

اتانى وعيد الأدعياء وأنهم

أعدوا لى السودانَ فى كَفرِ عاقب

فلو صدقوا في جَدِّهم لحذرتهم

فهل فيَّ وحدى قولُهم غيرُ كاذب ؟

فهل المقصودون بالتعريض هم أدعياء طبرية [illegible] أشار اليهم من قبل كما فسره ابن جنى ؟ ذلك [illegible] ولكن (كفر عاقب) التى يذكر الشاعر أنهم [illegible] اعدوا له فيها كميناً قرية من أعمال حلب . [illegible] حلب من طبرية ؟ أم أن الشاعر يعرِّض في [illegible] بالاسماعيلية من دعاة الفاطميين الذين كانوا

منتشرين فى كل مكان ، وفى الشام ومصر على وجه الخصوص ؟ من الجائز على كل حال أن يكون المقيمون فى طبرية من عملاء الاسماعيلية ودعاتهم ؟ والا فكيف يُتَصوَّر أن ناساً يسكنون فى طبرية يُعِدون كميناً فى حلب مالم يكونوا منتمين الى احدى العصابات أو الجماعات الدقيقة التنظيم؟.

شعر المتنبى مملوء بذكر هؤلاء الكائدين الذين تعقبوه فى كل مكان ، وطاردوه فى كل بلد ذهب اليه من بلاد الشام ، حتى تركوه فى قلق لا يعرف معه طعم الاستقرار . يقول من قصيدة له فى ابن عمَّار الأسدي ـ وكان يلي قتال طبرية للخلافة العباسية(٥٤) :

ألفتُ ترحُّلى وجعلت أرضى
قُتودي والغُريري الجُلالا(٥٥)
فما حاولت فى أرض مقاما
ولا أزمعت عن أرض زوالا
علَى قلق كأن الريح تحتى
أوجهها جنوباً أو شمالا

ارى المتشاعرين غَرُوا بذمى

ومن ذا يحمد الداءِ العُضالا

ومن يك ذا فم مُرٍ مريض

يجد مُراً به الماءَ الزُلالا

ويقول ، وقد مر بمدينة (جَرَش) متعجلا ، يعتذر الى صديق له بها(٥٦) :

لا تنكرنّ رحيلى عنك فى عجل

فاننى لرحيلى غيرُ مختارِ

وربما فارق الانسان مهجته

يوم الوغي غيرَ قال خشيةَ العارِ

وقد مُنيتُ بحساد أحاربهم

فاجعل نداكعليهم بعضَ أنصارى

ويصور المتنبى هؤلاء الأعداء الذين يترصدونه فى أسفاره ، فيصفهم بأنهم لصوص يقطعون الطريق ويعيشون فى أعماق الصحراء ، يرتدون ثياباً بالية لا تكاد تستر أجسادهم ، ويعيشون على ما يجدونه فى الصحراء القاحلة من بيض الضب .

فاذا مر بهم أخـذوا يتفرسون فيـه ويسألونه عن اسمه ، وكأنهم يشكون فى أنه هو المتنبى . فيبالغ فى التظاهر بالجبن وعدم الخبرة بالقتال ، وبالجهل وعدم القدرة على اعراب الـكلام . ومع ذلك يكاد ما طُبِـع عليه من الفصـاحة أن يفضحه . وكأنما كانت متاعب المتنبى وكثرة أعدائه وتعرضُـه للخطر تأتيه من فطنته ومن غباء النـاس ، ومن ادراكـه ما لا يدركون . يقول فى احدى قصـائده الشامية بأنطاكية(٥٧) :

أفاضل الناس أغراضٌ لذا الزمن
يخلو من الهمّ أخلاهم من الفِطَنِ
وانمـا نحن فى جيـل سـواسية
شر على الحُـر من سـقم على بدنِ
حولى بكل مـكان منهم خِلَقٌ
تُخطِي اذا جئت في استفهامها بمنِ
لا أقـترى بلـداً الا على غَرَرِ
ولا أمُرُّ بخَلـق غـير مضطغنِ
ولا أعاشر من أملاكهـم ملـكاً
الا أحـق بضرب السيف من وثنِ

وَمدقِعين بسُبروت صحبتُهم
عارين من حُلل كاسين من دَرَنِ (٥٨)
خُرَّابُ بادية غرثى بطونهم
مَكن الضِباب لهم زاد بلا ثمنِ (٥٩)
يستخبرون فلا أعطيهم خبرى
وما يطيش لهم سهم من الظِنَنِ
وخَلَّة من جليس أتقيه بها
كيما يرى أننا مثلان فى الوهنِ
وكلمة في طريق خفت أُعرِبها
فيُهتدَى لى فلم أقدر على اللحنِ

ويقول فى احدى كافورياته ، مصوراً ترصد أعدائه له وهو فى طريقه الى مصر(٦٠) :
فلو لم تكن فى مصر ما سرت نحوها
بقلب المشوق المستهام المتيم
ولا نبحت خيلى كلابُ قبائل
كأن بها فى الليل حملات ديلم
ولا أتَّبعَت آثارَنا عينُ قائف
فلم تر الا حافراً فوق مَنسِمِ

ويصور هربه من مصر وسط جماعة من غلمانه المدربين على القتال(٦١) :

تُبدِّل أيامي وعيشي ومنزلي
نجائبُ لا يُفكِرن في النحس والسعد

وأوجهُ فتيان حياء تلثموا
عليهن لا خوفاً من الحر والبرد

وليس حياءُ الوجه في الذئب شيمة
ولكنه من شيمة الأسد الوَرد

اذا لم تُجِزهم دارُ قوم مودة
أجاز القنا ، والخوفُ خير من الود

من هم هؤلاء الأعداء الذين ملؤوا حياة المتنبى وشعره ، وترصدوه فى بلاط الملوك والأمراء ، وفى رحلاته فى الصحراء ؟ وهل كانوا يعادونه لأسباب شخصية أم لأسباب سياسية ؟ ان سلوك المتنبى ومزاجه الحاد كان خليقاً أن يثير عليه كثيراً من العداوات . ولكنا لا نستطيع أن نُخلى هذه العداوات والمكايد من الدوافع السياسية . فشعر المتنبى مملوء بالثورة على الظلم وعلى الأوضاع

الفاسدة التى كانت سائدة في عصره(٦٢) ففى صباه المبكر في الكوفة نجده يقول(٦٣) :

الى أي حِين أنت في زي مُحرِم
وحتى متى في شقوة والى كمِ
والاَّ تمُت تحت السيوف مكرماً
تمُت وتقاس الذل غيرَ مكرَّمِ
فثِب واثقاً باللّه وثبة ماجد
يرى الموتَ في الهيجا جَنى النحلِ في الفمِ

ويقول في شامياته الأولى(٦٤) :

لأتر'كَنّ وجوه الخيل ساهمة
والحرب' أقوَم' من ساق على قدمِ
والطعن' يُحرقها والزجر' يقلقها
حتى كأن بها ضرباً من اللَّمَمِ
بكل منصلت مازال منتظرى
حتى أدلت' به من دولة الخدمِ

وفى البيت الأخير تعريض بخلافة بغداد التى يسميها (دولة الخدم) . وفيه تصريح بالاعداد لثورة

يتولى هو قيادتهـا . بل هو يذهب فى التصريح الى أبعد من ذلك فيقول :

ميعادُ كلٍّ رقيـق الشَّفرتين غـداً
ومن عصى من ملوك العُرب والعجمِ
فانِ أجابوا فما قصدي بهـا لهُمُ
وان تولوا فمـا أرضى لهـا بهمِ

ويقـول فى قصيدة يمدح بهـا صديقاً له كان يسكن فى جبل (جَرَش)(٦٥) :

لا افتخـار الا لمن لا يُضـام
مُـدرِك أو محـارب لا ينام
ليس عـزماً ما مرَّض المرءُ فيـه
ليس هَمّاً ما عاق عنـه الظلام
واحتمـالُ الأذى ورؤية جانيـ
ـه غـذاء تَضوَى به الأجسام
ذَلَّ من يغبط الذليـلَ بعيش
رُب عيش أخـف منـه الحِمام
كلُّ حِلم أتى بغـير اقتـدار
حُجـة لاجىء اليهـا اللئام

اقـــراراً ألَــــذُّ فــــوق شرار
ومَرامـــاً أبغى وظُلمى يرام ؟

دون أن يشرق الحجــــازُ ونجد
والعـــراقان بالقنـــا والشام ؟

ويندد الشـــاعر فى قصيدة أخرى من قصـــائده الشاميـــة بحيـــاة التـــرف والفســـق ، مهـــدداً بالانتقام(٦٦) :

ولا تحســـبَنَّ المجـد زِقّاً وقينـــة
فما المجد الا السيفوالفَتكَة البِكر

علىَّ لأهل الجَور كـــلُّ طِمِرَّة
عليها غلام مِلءُ حيزومه غِمر(٦٧)

ويصور سخطه على ما آل اليه أمر الخلافة ، بعد أن تحكم فيها الســـفهاء والجهـــال من جنود الترك فبغوا وأفسدوا وأغرقوا أنفسهم فى الترف(٦٨) :

وانمـــا النـــاسُ بالملـــوك ولا
تُفلِـــح عُـــرب ملوكُهـــا عَجَم

لا أدب عنـــدهم ولا حســـب
ولا عهـــود لهـــم ولا ذِمَم

بكــــل أرض وطئتُهـــا أمـــم
تُرعَى بعبـــد كأنهـــا غنم
يَستخشِـنُ الخَـزَّ حـين يلبسـه
وكان يُبـرَى بظفـره القلم

ويقول مصوراً ترف الحكام وضعف هممهم(٦٩):
فؤاد ما تسلّيــه المُـــدام
وعمـــر مثـلُ ما تَهَبُ اللئام
ودهـــر ناسُـــه ناس صـــغار
وان كــانت لهـــم جثث ضخام
أرانبُ غـيرَ أنهُمُ ملـــوك
مفتَّحـــة عيونُهـــم نيـــام
بأجســام يَحَرُّ القتلُ فيهـــا
وما أقرانهـــــا الا الطعام
وخيل ما يَخِرُّ لهـــا طعـــين
كأنَ قنـــا فوارســـها ثُمام(٧٠)
ولم أر مثـــلَ جـيراني ومِثلى
لِمثلى عنـــد مثلِهـــمُ مقام

بأرض ما اشتهيتَ رأيتَ فيها
فليس يفوتها الا الكرام
فهلاّ كان نقصُ الأهل فيها
وكان لأهلها منها التمام

ويقول فى احدى مدائحه لسيف الدولة ، موازناً بين جِدِّه في حرب الروم ، وبين لهوهم وعبثهم :
الهى الممالكَ عن فخر ذهبتَ به
شربُ المدامة والأوتارُ والعود(٧١)

ويقول فى القصيدة التى بعث بها اليه من الكوفة ، حين استدعاه بعد عودته من مصر فاعتذر :
ما الذي عنده تُدار المنايا
كالذى عنده تدار الشَّمول(٧٢)

في ظل هذا الشعر الثائر نستطيع أن نناقش قصة ادعاء أبى الطيب النبوة التى لقب من أجلها فيما يقولون بالمتنبى . ناقش محمود شاكر النصوص التى وردت فى كتب الأدب والتاريخ

القديم وفنَّدها جميعاً لتهافتها وتفاهتها في مثل ما روته من معجزاته وقرآنه . فمعجزاته المزعومة تافهة لا تجوز على أحد ، والقرآن المزعوم ضرب من الهذيان لا يليق بمن هو فى مثل منزلته من قوة البيان . وبَيَّن تناقض ما رُوِى فى هذا الصدد من أخبار اذا عورض بعضه ببعض من ناحية ، واذا عورض فى جملته بشعره من ناحية أخرى ، ولا سيما الشعر الذى قاله فى سجنه يستعطف به الوالى لاطلاقه . فهو يخلو خلواً تاماً من أى اشارة الى اتهامه بادعاء النبوة . ورد محمود شاكر سجن المتنبى الى عداوته للعناصر الدخيلة من العجم والديلم والترك من خدم الخلفاء ، الذين استولوا على السلطة وحجبوا الخلفاء عنها . ثم الى اتصاله ببنى حمدان أعداء الفاطميين ، الذين كانوا يطمعون بعد الزحف الى مصر فى ضم بلاد الشام ، ثم الى ما يفترضه من اذاعة نسبه العلوى فى الشام، الذى كان العلويون — لأمر ما — يحرصون على كتمانه . فاجتمعت على المتنبى — كما يقول — عيون الفاطميين وعيون العلويين وعيون الدولة

القائمة فى الشام . ويعلل محمود شاكر لقب المتنبى بأن أبا الطيب كان فى أول أمره متورعاً فى خلقه لا يخرج عن حدود الوقار ، متزمِّتاً لا يلين للشهوات ولا يلقى اليها مقاده ، مترفعاً عن سفساف الأخلاق متمسكاً بمعاليها ، آخذاً نفسه بالجد الذى لا يفتر . وكان لا يقرب التُّهَم ولا يدانيها « فما كذب ولا زنا ولا لاط » ولا أتى منكراً يؤخذ عليه أو يُزَنُّ به . واستمر على ذلك حياته كلِّها . وكان أهل عصره على خلاف ذلك ، وخاصة من انتسب الى الأدب واعتزى الى الشعر . فلا عجب اذا عدّه أهلُ صناعته من الأدباء والشعراء غريباً عنهم . ويمضى محمود شاكر فى تعليل هذا اللقب ، فيقول ان المتنبى فى أول شعره كان يكثر من ذكر الأنبياء ويردد أسماءهم فى شعره ويشبِّه نفسه بهم ويقيس أخلاق ممدوحيه الى أخلاقهم فى مثل قوله:

ما مُقامي بأرض نَحلة الا

كمُقام المسيح بين اليهود

وقوله في القصيدة نفسها :

أنا في أمَّة تداركهـــا اللـــ
ـــه غريب كصـــالح في ثَمُود

وقوله :

أنا الـــذي بيَّنَ الالـــه به الـ
أقـــدار والمـــرءُ حيثُمـــا جعله

وكان أيضـــاً كثـــير الانذار للمـــلوك والأمراء بعذاب بئيس سيأتيهم من قـِبـَله كقوله :

ميعادُ كلِّ رقيــق الشَّفرتَين غــداً
ومن عـَصـَى من ملوك العـُرب والعجم
فان أجابوا فمـــا قـَصدِي بهـــا لهُمُ
وان تولـَّوا فمـــا أرضَى لهـــا بهِـم

يقـــول محمود شـــاكر ان الشـــعراء خافوه على أرزاقهـــم حين علا ذكرُه واتصـــل سببُه ببدر بن عمـَّار ، فنبزوه بالمتنبي لما رأوه من كثرة دوران الأنبياء في شـــعره وترفعـــه عن مجالس لهوهم .

نبزوه به تندّراً وأخذوا يذكرونه بهذا الاسم . فلما كان ما كان من أمر حبسه أحدثوا من هذا النّبز قصة مخترعة عن نبوّة زعموا أنه ادّعاها . ويرى محمود شاكر أن القبض عليه كان سنة ٣٢٢هـ وأن تلقيبه بالمتنبى كان بعد سنة ٣٢٥هـ. لأن الناشىء قال فيما رواه عنه ياقوت الحموي ان ابا الطيب كان يحضر مجلسه سنة ٣٢٥هـ بالكوفة (وهو بَعدُ لم يُعرَف ولم يلقّب بالمتنبى)(٧٣).

ووافق عبد الوهاب عزام محمود شاكر وطابقه فيما ذهب اليه، وزاد عليه معارضة النصوص التى وردت فى ادعاء النبوة عند الخطيب البغدادى فى « تاريخ بغداد » وعند البديعى فى « الصبح المُنبِى » بروايتين للثعالبى وابن جِنّى لم يَرِد فيهما قول صريح عن ادعاء المتنبى للنبوة . وذلك بالاضافة الى رواية ياقوت فى معجم الأدباء عن أبى الحسن الناشىء التى اعتمد عليها محمود شاكر من قبل ، وهى تؤكد أن شاعرنا لم يلقّب بالمتنبى قبل سجنه ولا فى السنة التى سُجِن فيها . وتروى

أنه كان ينكر القصة اذا نبزه بها خصومه فى مجلس سيف الدولة . ووثّق عبد الوهاب عزام كذب دعوى النبوة بأن ابن الأثير وغيره رووا أخبار المتنبئين ولم يذكر أحدهم دعوى أبى الطيب. ثم أكّدها بروايات شُرّاح ديوانه على أنه دعا الناس الى أمر وسُجِن فيه ، واختلاف الروايات بعد ذلك فى أنها دعوى نبوّة أو غيرها ، وبشعره الذى قاله فى السجن يستعطف الوالى فى قصيدته:

أيا خَدّدَ اللهُ وردَ الخُدود
وقَدّ قُدود الحِسانِ القُدُود

وفيها يقول :

وقيل عدَوتَ على العالَمين
بين وِلادى وبين القُعود
فلا تسمعَنّ من الكاشحين
ولا تعبَأنّ بمَحك اليهود
وكُن فارقاً بين دعوى أردت
ودعوى فعلتُ بشأو بعيد

فلو كانت التهمة التى سجن بسببها هى ادعاء النبوة لما أهمل البراءة منها وانكارها فى هذا المقام . ويرجح عبد الوهاب عزام أن لقب المتنبى لحقه بسبب تشبيه نفسه بالمسيح بين اليهود وبصالح فى ثمود ، ثم وُضِعت قصة التنبؤ وشاعت لتعليل هذا اللقب(٧٤) .

ثم صدر كتاب طه حسين عن المتنبى فى العام نفسه . وهو كتاب يُعنَى بالناحية الفنية والنفسية اكثر من عنايته بالناحية التاريخية وبالتدقيق فى تمحيص أحداثها ووقائعها ، فمرّ بهذه الحادثة مروراً سريعاً واكتفى بالاشارة الى أن شعر المتنبى الثائر وحده كاف لأن يدفع به الى السجن(٧٥) .

ثم انى أضيف الى ذلك كله أن المتنبى ـ وهو لقب عُرِف به ، نُسمِّيه به ولا نَعنِي دلالته ـ قد عرف خطر القرامطة وخطر هذه الأجناس الدخيلة على الأمة وعلى الدين ـ وسوف نزيد ذلك بياناً ـ ثم وقعت هذه المعرفة منه موقع اليقين

الذى ملأ نفسه واستغرق فكره وهمَّه وطاقته .
فليس بمستبعد في مثل هذا الحال أن يستقر في نفسه شعور بأن التنبيه الى خطر هذه الفرقة واجب عليه أن يحمله ، وتكليف لا تبرأ ذمته أمام الله الا بابلاغه واذاعته . ومثلُ هذا الاحساس شيء مألوف في حياة كثير من المصلحين وأصحاب الدعوات ، لا يطعن في دينهم ولا يدعو الى اتهامهم بالتنبؤ ، لأن يقينهم بهذا التكليف يزيد من صلابتهم في الدعوة الى ما يَدعون اليه ، وفي الصبر على احتمال ما يلاقون في سبيلها من مكاره . وقد يعني أن هذه رسالتهم في الحياة وواجبهم الذى يحاسبهم الله على التفريط فيه . ولكنه لا يعني أنهم رُسُل يوحَى اليهم . بل ان كثيراً من أصحاب الدعوات يقع في نفوسهم هذا الاعتقاد الراسخ ، ثم لا يكون ذلك داعياً لفساد عقيدتهم ولا لاتهامهم بهذا الفساد .
ولكن أبا الطيِّب قد ركب أمراً عظيماً بمخاصمة جماعة سرِّية خطيرة . وكان لا بد من اسقاطه في أعين الناس لكي يُصِمّوا آذانهم عن سماعه .

في قصيدة المتنبى الداليــة التى بعث بهــا من سجنه الى والى حمص من قِبَل الاخشيد (اسحق بن كيغلغ) سنة ٣٢ ثلاث حقائق بارزة :

(أ) أنه متهم بالعدوان على جماعة المسلمين .

(ب) أنه سُجِن بتهمة التحريض على الثورة .

(جـ) أن خصومه الذين وشــوا به يهود ، أو هو يَنبِزهم بأنهم يهود .

يدفع الشــاعر التهمة الأولى بأنه كان فى ذلك الوقت صبياً صــغيراً . وربمــا كان معنى ذلك أن التهمة الموجهة اليه كانت في فترة صباه في العراق . وربما كانت هــذه التهمة هى الاشتراك فى بعض غارات القرامطة . وقد كانت كثيرة على الكوفة ، التى اتخذوا معسكرهم فى قرية قريبة منها على ما ذكرناه . وسنعود الى مناقشة هذه المسئلة .

ويدفع المتنبى التهمة الثانية بأن هناك فرقاً بين الثــورة وبين ارادة الثــورة . وينبغى أن يحاسب

الناس على ما فعلوا لا على ما يريدون أن يفعلوا . لأن الذى يريدون فعله علمه عند الله .

ثم هو يدفع التهم الموجهة اليه جميعاً بأنها من تلفيق خصومه الذين يصفهم بأنهم يهود . وقد ذكر المتنبى اليهود فى ثلاثة مواضع أخرى من شعره : أشار مرة الى يهوديّ يدسّ له عند بدر بن عمار ، ووصفه بأنه يبطن اليهودية ويظهر الاسلام. وصرح فى موضع آخر باسم ذلك اليهودي وهو (ابن كَروَّس) ووصفه بأنه أعور . وأشار في موضع ثالث الى يهودي كان يمشى بالنميمة والفساد بين التنوخيين في اللاذقية(٧٦) .

وقبل أن نقف عند هؤلاء الكائدين من اليهود الذين نجحوا فى الايقاع بالشاعر والزج به فى السجن ، وقبل أن نقف عند نبشهم تهمة الاشتراك فى الاعتداء على جماعات المسلمين ، نحب أن نمضى مع شعر المتنبى لنلاحظ أن فى هذا الشعر ما يدل على أنه كان يسعى جاداً الى الثورة ويُعد لها . وقد

سلك الى ذلك طريقين . سلك طريق العنف أولا ، فادى به الى السجن . وسلك طريق السياسة ، بالاتصال بأصحاب السلطان محاولا أن يستميلهم أو ان يحظى عندهم بمنصب ذى نفوذ يعينه على تحقيق اهدافه . ويبدو من شعره بوضوح أنه كان يسعى لأهداف سياسية معينة يتكتمها ولا يصرح بها .

أقام المتنبى فى أول عهده بالشام فى قرية تسمى «نحلة» قرب بعلبك . وهناك أخذ يُعد نفراً ممن اجتمع اليه للقتال . ودعا الناس الى دعوته . ولكنه لم يجد منهم اقبالا على الاستماع اليه . ولذلك شبه نفسه بينهم بالمسيح بين اليهود ، وبصالح في ثمود(٧٧) .

ما مقامى بأرض نحله الا
كمُقام المسيح بين اليهود
مَفرَشى صهوةُ الجواد ولكـ
ـنَّ قميصى مَسرودة من حديد
لأمَة فاضَة أَضاة دِلاص
أحكَمت نسجَها يدا داود(٧٨)

أنا فى أمـــــة ـ تداركهـــا اللـ
ـه ـ غـريب كصـــالح في ثمود

ويتذكر المتنبى هذه الأيام فى آخــر عمره وهو عند عضد الدولة فى شيراز . ويبدو من شعره أنه كان قد قضى فترة من الوقت فى البــادية ، يصيف بين حمص وخُناصِرة ، ويشتو في الصَّحصَحان ، وسط جماعة يتدربون على القتال ، ويعيشون حياة بدوية تعتمــد عــلى النهب والغــارات ، وعـــلى ما يتصيدونه من وحش الصحراء(٧٩) .

أحب حمصـــا الى خُنــاصِرة
وكــلُّ نفس تحـــب مَحيَاها
حيث التقى خـدُّها وتفاحُ لبنـا
ن وثغـــرى عـــلى حُمَيَّاها(٨٠)
وصِفتُ فيهــا مصــيف بادية
شـــتوت بالصَّحصَحان مشتاها
ان أعشَبت روضـــــة رعيناها
أو ذُكِرت حِـــلَّة غزوناها

أو عَرَضَت عانــــة مقزَّعة

صدنا بأخرى الجيـاد أُولاها(٨١)

والخيـــل مطـرودة وطـــاردة

تجــر طُولَى القنـــا وقصراها

يعجبهـــا قتلهـــا الكُمـــاةَ ولا

يُنظِرها الدهـــرُ بعـــد قتلاها

والمواضع التى أشـار اليهـا المتنبى فى هـذه الأبيات حول حمص هى المواضع التى قبض عليه فيها فى أول حياته فأودع السجن .

وابتغى المتنبى الوسيلة الى تحقيقأهدافه وجمع الناس على دعوته الثائرة بالاتصال بشيوخ القبائل من البدو فلم يلق منهم استجابة . وصـور رحلاته الشاقة وخيبة مسعاه فى كثير من شعره الشامى على وجه الخصوص . يقول في احدى هذه القصائد(٨٢) :

أواناً فى بيـوت البـدو رَحـلى

وآونـــة عـــلى قَتَــدِ البعير

أُعرِّض للرماح الصُّمِّ نَحرى
وأنصب حُرَّ وجهى للهجير
وأسرى فى ظلام الليل وحدى
كأنى منه فى قمر منير
فقُل فى حاجة لم أقضِ منها
على شَغَفى بها شروَى نقير
وقِلَّةِ ناصر جُوزيتَ عنها
بِشَر مِنكَ يا شَرَّ الدهور

وحاول المتنبى أن يتصل بذوى النفوذ والسلطان يطلب منهم امداده ومساعدته بالسلاح والرجال حيناً ، ويطمع فى أن يظفر بولاية تعينه على تحقيق أهدافه حيناً آخر . طمع عند كافور أن يوليه ولاية أو يعينه بجيش وبدا ذلك منذ القصيدة الأولى فقال(٨٣) :

وغيرُ كثير أن يزورك راجل
فيرجعَ مَلكاً للعراقَين واليا
فقد تهب الجيش الذى جاء غازياً
لسائلك الفرد الذى جاء عافيا

ثم ألح المتنبى على طلبه فى كل قصائده .
فقال(٨٤) :
فارمِ بى ما أردتَ منى فانى
أسَدُ القلب آدميُّ الرُّواءِ
وفؤادى من الملوك وان كا
ن لسانى يُرَى من الشعراء

وقال(٨٥) :
اذا لم تَنُط بى ضيعة أو ولاية
فجودك يكسونى وشُغْلُك يسلب

وقال(٨٦) :
قالوا هجرت اليه الغيث قلت لهم
الى غيوث يديه والشآبيب
الى الذى تهب الدَّولاتِ راحتُه
ولا يَمُنُّ على آثار موهوب

وصرح في هذه القصيدة بأن رحلته ليست لجمع المال . فقال يصف فرسه :

تَهوِى بمُنجرِد ليست مذاهبُه
لَلبس ثوب ومأكول ومشروب

وقال في قصيدة أخرى(٨٧) :
وما رغبتى فى عسجد أستفيده
ولكنها فى مَفخر أستجدُّه

ومُنى المتنبى بالفشل فى كل محاولة حاولها لتحقيق أهدافه . وأدرك آخرَ الأمر أنه لم يسلك الطريق الصحيح الى هدفه ، حين ابتغى اليه الوسيلة بالاتصال بذوى السلطان عن طريق مدحهم وتملقهم . وعرف أن السيف وحده كان هو الطريق الصحيح . ولكنه كان يعود فيحدث نفسه فى حسرة قائلا : ان آماله تحتاج الى المال والجاه ، وهو لا يملك المال ولا الجاه . وما أشقى الطّموح اذا أعوزَته الحيلة ، فكانت همته وآماله أكبر من امكانه .

يقول من قصيدة له بمصر فى كافور(٨٨) :

وأتعَبُ خلقِ الله من زاد هَمُّه
وقصَّر عما تشتهى النفسَ وُجدُه

فلا يَنحلِل فى المجد مالُك كله
فينحَلَّ مجد كان بالمال عقده

ودبِّره تدبير الذى المجدُ كَفُّه
اذا حارب الأعداءَ والمالُ زَندُه

فلا مجدَ فى الدنيا لمن قلَّ مالُه
ولا مال فى الدنيا لمن قلَّ مجدُه

ويقول بعد رحيله من مصر فى قصيدته(٨٩) :

حتام نحن نسارى الليل فى الظُّلَم
وما سُراه على ساق ولا قدم

ولا يُحِسُّ بأجفان يُحسُّ بها
فقدَ الرقاد غريب بات لم ينم

وهي قصيدة تقطر حزناً ومرارة .. وقد عاودته فيها آراؤه الثائرة التى رأيناها فى شعر شبابه الشامي .. ففيها يقول :

ما زلتُ أُضحك ابلي كلما نَظَرت
الى مـــن اختضبَت أخفافُهـــا بدم

أُسيرُها بين أصـــنام أشاهدها
ولا أشـــاهد فيهـــا عفـــة الصنم

حتى رجعتُ وأقـــلامى قـــوائلُ لى
المجدُ للسيف ، ليس المجد للقلم

اكتُب بنا أبداً بعـــد الـــكتاب به
فانمـــا نحـــن للأســـياف كالخدم

أسَمعتِنى . ودوائي ما أشرتِ بـــه
فانِ غَفَلتُ فدائى قِلَّةُ الفهم

من اقتضى بسِوى الهندى حاجتَه
أجاب كلَّ سؤال عـــن هَل بلَم

ويختم الشاعر قصيدته الحزينة بقوله :

وقت يضـــيع وعُمر ليت مدته
فى غير أمتـــه من صـــالح الأمم

أتى الزمانَ بنـــوه فى شبيبته
فسرَّهم وأتينـــاه على الهَرَم

ما هى هذه الأهــداف الخطيرة التى ظل المتنبى يسعى وراء تحقيقها طوال عمره فذاق فيها السجن وعاش حيــاته مشرداً مهدداً ؟ اننا لا نجد فى شعر المتنبى اشارة صريحة لها . فهو يراها أخطر من أن يصرِّح بها كما يقول فى قصيدته التى رثى بهـا جدته :

يقولون لى : ما أنت فى كل بلدة ؟
وما تبتغى ؟ ما أبتغى جل أن يُسمَى

ولكن شعره ناطق بأنه كان يسعى الى أمر عظيم، تعلَّم من الـكيد المنظم والدسائس التى أحاطت به فى كل مكان وترصدت له فى كل طريق أن يحرص على كتمانه .

يقول فى احدى قصائده الشـامية فى مسـتهل حياته(٩٠) :

ومن يَبغ ما أبغى من المجد والعلى
تَساوَ المحَاييَ عنـده والمَقاتلُ

ألا ليست الحاجاتُ الا نفوسكم
وليس لنا الا السيوف وسائلُ

ويقول ، وقد مر بمكان يُعرف بالفراديس ، فسمع زئير أسد(٩١) :

أجارُكِ يا أُسدَ الفَراديس مُكرَم
فتَسكُنَ نفس ، أم مُهان فمُسلَم ؟
ورائى وقُدّامى عُداة كثيرة
أحاذر من لِص ومنكِ ومنهم
فهل لكِ فى حِلفى على ما أريده
فا نِى بأسباب المعيشة أعلَمُ
اذاً لأتاكِ الرزق من كل وجهة
وأثريت مما تغنمين وأغنمُ

ويقول ، وكأنه يهدد الذين تقرَّبَ اليهم بالمدح فلم يعينوه على تحقيق أهدافه(٩٢) :

لله حال أرجِّيها وتُخلِفنى
وأقتضى كونَها دهراً ويمطلنى

مدحتُ قوماً وإنِ عشنا نظمتُ لهم
قصائداً من اناث الخيل والحُصُن

ويقول في احدى مدائحه لسيف الدولة(٩٣) :
أُهمُّ بشيء والليالى كأنها
تطاردنى عن كَونِه وأطارِد
وحيد من الخلان فى كل بلدة
اذا عَظُم المطلوبُ قَلَّ المُساعِد

ما هو الشيء الذى يهم به ويسعى اليه ولا تساعده الظروف على تحقيقه ؟ انه ليس مطلباً شخصياً . فالمطالب الشخصية لا تطلب بالسيف ولا تحتاج الى الأعوان ، ولا يحارَب صاحبها بهذا الأسلوب المنظم . واذا كانت سياسية فهل كانت مؤيدة للقرامطة كما ذهب اليه طه حسين وبعض المستشرقين ؟ أم كانت معادية للقرامطة ، تريد أن تنبه الناس الى خطر دعوتهم ، والى أن حقيقتها تخالف ما يظهرون للناس منها ، ولفقرائهم المعذبين على وجه الخصوص ، حين يزعمون لهم

أنهم يريدون أن ينتصفوا للمظلومين المحرومين من المترفين الظالمين ، ويموّهون عليهم بالآية الشريفة التى اتخذوها شعاراً يكتبونه على أعلامهم البيضاء: « ونُريدُ أن نَمُنَّ على الذين استُضعِفُوا فى الأرض ونجعَلَهم أئمة ونَجعلَهم الوارثين »(٩٤) .

ان الذى يدقق النظر ويطيل التأمل فى حياة المتنبى وفى شعره يستطيع أن يجد شواهد كثيرة على عدائه للقرامطة وللباطنية . فالمتنبى قد عاش حياة قلقة لم يذق فيها طعم الاستقرار الا عند الحمدانيين . وقد أشار ابن الأثير فى مواضع متفرقة من تاريخه الى جهاد الحمدانيين للقرامطة على وجه العموم ، والى جهاد أبى الهيجاء والد سيف الدولة لهم على وجه الخصوص(٩٥) وقد مضى سيف الدولة على آثار أبيه فى مجاهدة القرامطة . ففى سنة ٣٣٧ أغار القرامطة على حمص وأسروا واليها أبا العشائر بن حمدان (ابن عم سيف الدولة) ، فنهض اليهم وأوقع بهم واستنقذ ابن

عمه . وفى ذلك يقــول المتنبى ، مشــيراً الى جيش القرامطة(٩٦) :

وجَيشِ إمام عـــلى ناقـــــة
صـــحيح الإمامة فى البـــاطل

ويتهكم بزعيم القرامطـة . وكأنه كان يزعـم لأتبـاعه أن الوحي ينزل عليـه ، ويموّه عليهـم ويخدعهم بما خدعهم به الزعيم القرمطى السابق الملقب بالشيخ ، حين كان يزعم أنه اذا أشار بيده الى الجهة التى فيها محاربوه انهزموا(٩٧) وكأنما كان اتباعه ينخدعون بكلامه ، فيتقــدمونه وهو راكب فوق جمــله ، وعليه ثيــاب فضفاضة ذات أكمــام واسعة ، كأنهم جماعة النحل الهائج أمام العاسل :

فأقبلـــن يَنحَــزن قُــدّامه
نوافـــر كالنحـــل والعاسل

وإنى لأَعجَبُ مـــن آمـــل
قِتـــالا بكُـــم عـــلى بازل

أقـــال لـــه الله لا تَلقَهـــم
بمـــاض عـــلى فـرس حائل

اذا ما ضَربتَ بـــه هامـــة
براها وغَنَّاك في الــكاهل ؟(٩٨)

ويشيد المتنبى فى قصيدة أخرى بجهاد سيف الدولة وجهاد أبيه فى مناصرة الخلافة العباسية وشد أزرها ضد القرامطة الذين كانوا يعملون على تقويضها فيقول(٩٩) :

فأنت حسام الملك والله ضارب
وأنت لواء الدين والله عاقد
وأنت أبو الهيجا بنُ حمدانَ يا ابنه
تَشابَه مولود كريم ووالد
أولئك أنياب الخلافة كُلِّها
وسائرُ أملاك البلاد الزوائد

ويشيد فى قصيدة أخرى بمناصرة سيف الدولة للخلافة العباسية ، منددأ بدولة البويهيين الشيعية التى يسميها (دولة الكفر)(١٠٠) :

لأمر أعدَّته الخلافةُ للعدا
وسمَّتهُ دون العالم الصارمَ العَضبا

فَمن كان يُرضِي اللؤمَ والكفرَ مُلكُه
فهــذا الذى يُرضِي المــكارمَ والربا

ويتهكم المتنبى فى موضع آخر بالدولة العباسية التى يتبعها سيف الدولة والخاضعة للشيعة البويهيين(١٠١) :

فيا عجبَــا من دائــل أنت ســيفه
أما يتــوقى شَفرَتَى ما تقلدا ؟
ومن يجعل الضِرغام للصيد بازَه
تصيّده الضرغامُ فيمـا تصيّدا

ويشير فى قصيدة أخرى الى جهاد أبى الهيجاء ـ والد سيف الدولة ـ فى حرب القرامطة ، حين كان يتولى حراسة طريق الكوفة للحج سنة ٣١٢هـ فيقول(١٠٢) :

ابنُ المعفّرِ من نجــد فوارسَها
بســيفه ولــه كُوفانُ والحَرَم

ويشير الى غارات القرامطة على أطراف ملك

سيف الدولة فيجعلهم أعداءاً للاسلام كالروم الذين يجاهدهم سواء بسواءٍ حين يقول(١٠٣) :

أنت طـــولَ الحيـــاة للـــروم غاز
فمتى الوعـــدُ أن يكـــون القُفول ؟
وسِوَى الروم خلفَ ظهـــرِك روم
فعلَى أيِّ جانبيـــكَ تميــــــل

ويسخر المتنبى من دعوى المهدية والرجعة ، التى يُشيعها الباطنيـــة والقرامطـــة ، لأنهـــا تَصرِف الناس عن معالجة الفساد بالكفاح فىسبيلالاصلاح، وتُعلـِّقهم بالأوهام . فيقـــول فى احدى قصـــائده لعضد الدولة فى شيراز(١٠٤) :

فان يكُنِ المَهــــدِيُّ مَن بان هَديُه
فهذا . والا فالهُدَى ذا . فما المهدى ؟
يُعلـِّلنا هـــذا الزمانُ بذا الوعـــد
ويَخـــدَعُ عمـــا فى يديه من النـَّقد
هـــل الخـــيرُ خير ليس بالخـــيرِ غائب
أم الرُّشـــدُ شيء غائب ليس بالرشد ؟

وذلك كلــه صريح فى عــداء المتنبى للباطنيــة وللقرامطة . فاذا أضفنا اليه ما سبق أن لاحظناه ، من وصفه خصومه الذين يكيدون له بأنهم أدعياء تارة وبأنهم يهود تارة أخرى ، مع ما هو معروف من اتهام الفاطميين بأنهم يهود ادّعوا النسب العلوي ـ وهى تهمة شائعة فى عصرهم ، كما يبدو من المحاضر التى دونتهــا الدولة العباســية(١٠٥) ، ومِن كتب الفــرق ـ واذا أضــفنا اليــه كذلك ما لاحظنــاه من القِيمَ الخلقيــة التى تَعَلَّق بهــا ومجَّــدها ودعا اليهــا وأكثر من ترديدها ، وهي قيم تناقض العقيــدة الأساســية فى مذهب الاسماعيليــة بكل فروعها ـ ومنها القرامطة ـ ، تأكد عندنا من ذلك كلــه ما ذهبنــا اليــه من أن المتنبى كان ينــاهض القرامطة ودعاة الباطنية .

والواقع أن الشكوى التى يفيض بها شعر المتنبى اليَق' بعدو القرامطة منهــا بالداعيــة القرمطي . فالداعية القرمطى لا يشــكو ولا يتعجل النتائج ، لأن الدعوة كانت تســير على نظام مرســوم بطريق

سرى لا تجهر فيه بالشكوى من قلة النصير ، ولا تعلن فيه العداء للناس ، ولأن دعاة الباطنية ـ ومنهم القرامطة ـ كانوا ينشّئون تنشئة خاصة ، تكسبهم خبرة بطبائع الناس والمجتمعات ، وقدرة على الدخول الى قلوبهم من أقرب الطرق وأحبها اليهم . وكان الكتمان أبرز صفاتهم . وانما الأليق بهذه الثورة أن تكون تعبيراً عن ضيقه بفساد المجتمع والحكام ، الذى مهد الطريق لدعوة القرامطة ومكن لها ، وبعدم استجابة الناس له حين ينبِّههم الى خطر القرامطة والفاطميين فتقعد بهم البلادة والغباء والخوف عن الاستجابة لدعوته ، وحين يجد كثيراً منهم واقعاً تحت سيطرتهم عن رهبة أو غفلة . وحين يقصد الأمراءَ وأصحابَ النفوذ والسلطان فيجدهم مشغولين عن الجهاد وتكاليفه بالترف والشهوات .

ولو كان المتنبى داعية قرمطياً كما ذهب اليه بعض الباحثين لعاش كما يعيش كل دعاة القرامطة متخفياً لا يعرف الناس حقيقة ميوله . ولما واجه

هذا الكيد المنظم فى كل بلد حل به وفى كل طريق سلكه ، وهو كيد لا يصدر الا عن جماعة واسعة الانتشار دقيقة التنظيم . وأعداء القرامطة ليس لهم رابطة منظمة . وقد واجه المتنبى دعاية محكمة في التشنيع بسيرته وبشعره على السواء ، فوضعوا قصصاً تصور بخله ودناءة نفسه . ولم يتورع بعض هذه القصص عن رميه بالغلمان ، مما يتعارض تعارضاً صارخاً مع حياته وشعره . وزعموا أنه ادعى النبوة ، وصنعوا كلاماً ركيكاً زعموا أنه عارض به القرآن . ولو أراد المتنبى معارضته حقاً فلقد كان قادراً على كلام أعلى طبقة وأبلغ عبارة . وزعموا أنه كان لا يصلى ولا يصوم ولا يقرأ القرآن . وأغرى به المهلبي وزير مُعِز الدولة البويهى جماعة من الشعراء الساقطين سلوكاً وفناً ينهشونه ويزعمون أن أباه سقاء وينالون منه(١٠٦) . وأغرى به الحاتمي ، فقصده في مجلسه بين تلاميذه الذين يأخذون عنه شعره ، وتطاول عليه وحقره ، فى القصة المشهورة التى

تصــور الظلم والتحــامل ، والتعســف فى تتبــع الأخطــــاء ، وانـــكارِ المحاسن وادعاءِ أنهـــا مسروقة(١٠٧) . ووضعوا عدداً ضخماً من الكتب في سرقاته وفي تتبع مساوىء شعره(١٠٨) . وذلك كله بالاضافة الى ما كان يحاك له من دسائس، وما يوضع في طريقه من العقبات ، وما يهدد حياته في أسفاره من تَـرَصُّد ومطاردة .

وهذا الصراع الذى خاضه المتنبى طول حياته ، والذى انتهى بمقتله ، يذكرنا بردِّ الشريف الرضى على أبيه حين عاتبه فى الشعر المنسوب اليه ، والذى يمدح به الفاطميين . فلما أنكره الرضى طلب اليه أبوه أن يعلن هذا الانكار بين الناس ، فاعتذر من ذلك قائلا : (.. ولكنى أخاف من الديلم وأخاف من المصري ومن الدعاة في البلاد)(١٠٩) . لقــد أصبح الدعاة الذين بثهــم الفاطميــون فى كل مــكان ، والدَّيلمُ الذين يؤيدون هــذا المذهب ، قوة تبعث الرعب فى النفوس . وقد ازداد خطرهم من بعــد

ذلك حين استولى الحسن الصباح على قلعة أَلَموْت (جنوبى بحر قزوين) سنة ٤٨٣هـ .

★★★

ولكن قصيدة واحدة فى ديوان المتنبى من قصائد صباه فى الكوفة تعارض هذه الصورة التى استخرجناها من سائر شعره ، وتدل دلالة صريحة على أن الشاعر من غلاة الشيعة الباطنيين الذين يؤمنون بالحلول . ونعنى بها قصيدته(١١٠) :

كُفِّى ، أرانى - ويكِ - لومَكِ أَلوَما
هَمٌّ أقام على فؤاد أنجمَا

وهى قصيدة أخفى الشاعر اسم الممدوح فيها ، واكتفى الديوان فى تقديمها بقوله : (وقال وهو فى المكتب يمدح انساناً ، وأراد أن يستكشفه عن مذهبه) .

يقول المتنبى فى هذه القصيدة لممدوحه المجهول:

يا أيها الملك المُصَفَّى جوهراً
من ذات ذى الملكوت أسمَى من سَما

نور تَظَاهرَ فيـــك لا هُوتيُّه
فتـكادُ تعــلم عِلمَ ما لن يُعلَما
أنا مُبصِرٌ وأظـــن أني نائـــم
من كان يحــلم بالالـــه فأحلما
كَبُرَ العِيـــانُ عَلَيَّ حتى اِنه
صـــار اليقين من العِيـان تَوهُّما

هذه الأبيات صريحة فى دلالتها على أن صاحبها يؤمن بما يذهب اليـه الباطنيـة الاسماعيليـة فى أئمتهم . وهى تذكرنا بوصف داعى الدعاة مقابلته الأولى للمستنصر الفاطمي ، الذى ذكرناه من قبل . والممدوح بهذه القصيدة غير معروف ، لـكن من المحتمل أن يكون أحد دعاة القرامطة فى الكوفة . ولعله (أبو الفضـل) الذى ورد ذكره فى كتـاب أبى القاسم عبـد الله بن عبـد الرحمن الأصفهانى الذى ألفه لبهاء الدولة بن بويه (ايضاح المشـكل فى شعر المتنبى) ، حيث قال ان أبا الطيب (كان فى صغره وقع الى واحد يكنى أبا الفضل بالـكوفة من المتفلسفة . فهوَّسه وأضله كما ضل)(١١١)وهذه

القصيدة هى نقطة البدء التى بَنَى عليها كلامَهم كلٌ من ذهب الى تقرمط المتنبى من الباحثين(١١٢) .

والقصيدة على كل حال لا شك فى دلالتها . وليس لنا بد من أن نقول ان المتنبى كان واقعاً تحت سيطرة القرامطة ـ الفكرية على الأقل ـ حين كتبها . ويدعونا هذا الى أن نتساءل : هل كان هو وحده واقعاً تحت سيطرة القرامطة ، أم كانت أسرته تشاركه فى اعتناق هذا المذهب ؟ اننا لا نعرف شيئاً عن أسرته ولا نعرف أباه ولا نعرف أمه . وقد تحاشى المتنبى ذكرهما فى كل شعره رغم ما ووجه به من تحدِّى خصومه . ولا نعرف عن جدته الا القصيدة التى رثاها بها ، وما رواه الخطيب البغدادى من أنها كانت همدانية صحيحة النسب ، وكانت من صالحات النساء الكوفيات(١١٣) .

وما دام التاريخ قد سكت عن هذه المسئلة ، وما دام شعر المتنبى يقف منها موقف الصمت ،

فليس لنا بد من أن نملأ هذه الفجوة فى قصة حياة شاعرنا بالفروض . فهل نستطيع أن نفترض ـ مع ما نعرفه من تسلط القرامطة على الكوفة ، واتخاذهم معسكراً في البادية القريبة منها(١١٤) ـ أن القرامطة قد نجحوا فى استدراج والد المتنبى ووالدته الفقيرين، الى مذهبهم الذي كان يستدرج أمثالَهما من الفقراء بما يعدهم من عدل ورخاء فى ظل المهدى المنتظر ، فرحلا مع ابنهم الصغير الى أحد معسكراتهم ؟ وشاركوا فى غارات القرامطة على الكوفة ؟ وأن الصبى الصغير حين شب وعقل قد اطلع على مخازيهم فى هذا المعسكر بعد أن عاش فيه سنين ، فهرب الى جدته التى كانت تعيش فى حزن يأكل قلبها على مصير ابنتها . وامتلأت نفس المتنبى بالسخط على المجتمع الذى عاش فيه ، بكل ما فيه من فساد وظلم . سخط على الحياة اللاهية المترفة التى يحياها أصحاب الجاه والسلطان ، والتى يقابلها فى الناحية الأخرى حرمان شديد وفقر مدقع . وسخط على الانحلال والفساد الذى يغرق فيه الأغنياء المترفون . وسخط على الانحلال

والفساد الذى يُدفَع اليه الفقراء المُعدِمون . وسخط على استخزاء الناس وضعف هممهم وتفاهتهم وانشغالهم بشهواتهم . واعتبر ذلك الفساد بكل مظاهره وألوانه مسئولا عن تسلل المذاهب الهدامة التى تختفى خلف شعارات براقة تعمل من ورائها عناصرُ غريبة على المسلمين وعلى العرب ، تريد أن تضرب الاسلام والعرب فى وقت واحد . كانت نفس المتنبى تفيض بهذا السخط ، وكانت هذه الآراء تدور فى رأسه ، وتُنضِج الحقدَ الذي يملأ صدره، والسخط الذى يغلى فى أعماقه . وكانت جدته الحازمة المنكوبة تحيط برعايتها وارشادها ذلك الصبى الصغير الذى أصبح كلَّ ما بقى لها فى الحياة . ولكن المتنبى لم يطق حياة الذل والعار . ولم يستطع أن يواجه المجتمع الكوفى الصغير ، الذى يتساءل فى كثير من الدهشة التى يخالطها الاشفاق ، والتى لا تخلو فى بعض الأحيان من الغمز واللمز ، عن اختفاء والد المتنبى ووالدته . رحل المتنبى الى الشام يحمل بين جنبيه كل ما أنضجته التجربة القاسية من حقد ومن سخط . ويحمل فى رأسه كل

ما وَعَى من حقائق فى مجتمعه وفى مجتمع القرامطة وما سمع من جدته . ولم يقدِّر في فورة شبابه واندفاعه قدرته وامكانه . وظن أن الأمر يسير ، وأنه يستطيع أن يفعل شيئاً يغيِّر به الوضع القائم . ولِمَ لا يفعل وباب المجد فى عصره مفتوح لكل طموح ولكل مغامر ، من جنود الترك الذين كانوا يثبون من منازل الخدم الى مقاعد الرياسة ، ومن مشايخ القبائل وأصحاب الدعاوَى والدعوات الذين كانوا يثبون فجأة وفىسهولة ويسر الى مراكز الامارة ، ولا يلبثون أن يستقلوا عن الخلافة وأن يصبحوا ملوكاً فى اماراتهم المستقلة ؟

بدأ المتنبى يتصل فى الشام بمشايخ القبائل وبالأمراء ، يتقرب اليهم بشعره مادحاً ، ويحاول أن ينبههم الى خطر القرامطة والدعوة الباطنية ، والى فساد الأوضاع الاجتماعية القائمة ، وأن يضمهم فى جبهة واحدة تقف فى وجه هذا الخطر الذى يزحف عليهم من الشرق بالقرامطة ومن الغرب بالفاطميين. ولكن دعاة القرامطة والفاطميين وعملاءهم كانوا

يتعقبون الفتى الشاب ويرصدونه ، ويحيطونه بمكايدهم ودسائسهم ، التى استمرت الى نهاية عمره وانتهت بمقتله .

هذا المعسكر القرمطى الذى نفترض هرب المتنبى اليه مع والديه وهو بعدُ صبيٌ صغير ، يذكّرنا بما رواه الطبري وابن الأثير فى حوادث سنة ٢٩٠ هـ من خبر المرأة العراقية التى غاب عنها ولدُها فخرجت تَنشُده حتى وقعت عليه في معسكر القرامطة ، وما وصفَته من حياة الشيوع الجنسى الذى كان هؤلاء القرامطة يعيشون فيه ، وما كان من ضرب ابنها لها بالسيف حين هربت من هذا المعسكر(١١٥) .

وهذا الفرض الذى ذهبنا اليه يمكن أن يفسر كثيراً من الغموض فى حياة الشاعر وفى شعره . فهو يفسر لنا صمته عن ذكر أبيه وأمه . ويفسر لنا ما رواه الخطيب البغدادي وابن الأنباري والبديعى من أن الشاعر قد خرج الى البادية فعاش

مع الأعــراب ســنين ، ثم عاد الى الــكوفة بــدوياً قُـحاً(١١٦) . ويفسر لنا البيت الذي جاء في قصيدته الدالية التى وجهها الى اسحق بن كيغلغ من سجنه ، وهو قوله :

وقيــل عــدوتُ عــلى العــالميــ
ــن بــين ولادى وبــين القعــود

فالتهمة التى أثارها خصــومه وقتذاك فيما يبدو هي أنه اشــترك مع أسرته وهو بعدُ صبي صغير — فى غارة أو عدوان على جماعة المسلمين .

ويفسر لنا ذلك الفرضُ كذلك ما جاء فى تقديم القصيدة الدالية السابقة من أن الشاعر قد أسقط بعض شعره ، وكانت هذه القصيدة مما أسقطه من شعر الصبا(١١٧) . ويفسر لنا أيضاً اشارته في احدى قصائده عند سيف الدولة الى جماعة عاش بينهم فى صباه ، بين (العُذَيب) و (بارق) و (الثَّوِية) — وهى مواضع فى ظاهر الــكوفة — ووصف حياتهم بالخشــونة . فهم يفترشــون الأرض ، ويذبحــون

ما يقتنصون من وحش الصحراء بما بقي من سيوفهم التي كسروها في رءوس من قتلوا من الناس(١١٨) :

تذكرتُ ما بين (العُذَيب) و (بارق)
مَجَرَّ عوالينا ومَجرَى السوابق

وصحبةَ قوم يذبحون قَنيصهم
بفضلة ما قد كَسَّروا في المَفارق

وليلا توسَّدنا (الثَّوِيّة) تحته
كأن ثراها عَنبر في المَفارق

ويفسر لنا هذا الفرض كذلك بعض ما جاء في القصيدة التي رثى بها جدته . ففي هذه القصيدة ظواهرُ كثيرة تلفت نظر الدارس(١١٩) :

فالمتنبي قد جاء لزيارة جدته بعد غيبة طويلة في الشام . ولم يشأ أن يدخل الكوفة ، وكتب الى جدته أن توافيه في بغداد . فلما باغتَتها كتابُه بعد يأس من لقائه حُمَّت وقتلتها المفاجأة لوقتها :

أتاها كتابي بعد يأس وتَرحة
فماتت سروراً بي فمتّ بها غمَّا

والمتنبى يشير الى أنه قد ترك جدته مطالباً بثأر لها هو فى الوقت نفسه ثأر له ، ففاته الثأر وفاتته جدته :

طلبتُ لهـــــا ثأراً ففـــاتَت وفاتنى
وقد رضِيـَت بى لو رضيتُ بهما قسما
فأصـــبحتُ أستســـقى الغمـــامَ لقــبرها
وقد كنت أستسقى الوَغىَ والقنا الصُّمَّا
هبينى أخذتُ الثــأر فيــك من العِــدَا
فكيف بأخــذ الثــأر فيــكِ من الحُمَّى

ويشير المتنبى الى ما تثيره كثرة أسفاره وتنقله بين البلاد من تساؤل عن حقيقــة أهدافه . ويقول ان أهدافه أخطر من أن يصرح بها :

يقـــولون لى ما أنت فى كل بلــــدة ؟
وما تبتغى ؟ ما أبتغى جَلَّ أن يُسمَى

ويقرر المتنبى ــ فى قصيدة رثاء ، يخيم عليهــا

حزن عميق ــ أنه سيمضى فيما بدأه ، حتى ينتقم لها ويأخذ بثأرها :

لئن لَذَّ يومُ الشامتين بيومها
لقد وَلَدَتْ منى لآنافهم رغما

... ولكننى مستنصر بذُبابِه
ومرتكب فى كل حال به الغَشما

وجاعلُهُ يوم اللقاء تحيتى
والا فلستُ السيدَ البطل القَرما

والمتنبى فى هذه القصيدة يُضفِى على جدته كل ما فقده من صفات الأبوة والأمومة معاً . ففيها حنان الأم حين يقول :

لَكِ اللهُ من مفجوعة بحبيبها
قتيلةِ شوق غيرِ مُلحِقِها وَصما

وفيها حزم الأب وقوة ادراكه وقدرته على التوجيه حين يقول :

فوا أسفَا أن لا أُكِبَّ مقبِّلا
لرأسك والصدر اللذَى مُلِئا حزما

هـذه الفوضى الخلقيـة والاباحة الجنسـية التى اطلع عليهـا المتنبى فى معسـكر القرامطة هى التى تركت فى نفسـه ذلك الأثر العميـق والـكراهية الشـديدة للخمر وللنساء ، التى تبـدو واضحة في سيرته وفى شعره . وهو فى الوقت نفسه يعلل لنا قصيدتين بالغتين فى الافحاش ، وقف أمامهما الرواة والدارسون حائرين ، وهما قصيدته فى اسحق بن كَيغَلغ في طرابلس ، وقصيدته في ضَبَّة بن يزيـد العيني الأسدي(١٢٠) . والافحاش فيهما صريح عار ، يقـوم على اتهـام كل من المهجوين في عرضـه وفي عرض أمه وعرض زوجته . فهل كان ذلك تعريضاً بقرمطية المهجـو ؟ من الثـابت أن أحـد المهجوَّين ـ وهو ضبة ـ كان قَرمطيـاً . فالذين أغاروا على الكوفة ، حين كان المتنبى فيها بعد عودته من مصر سنة ٣٥٣هـ كانوا من قرامطة بنى كلاب ، أخوال ضبة(١٢١) . والذين خـرجوا مع ضبة ، وترصدوا المتنبى وقتلوه فى عودته من شيراز الى بغداد كانوا من قرامطة بنى كلاب أيضاً(١٢٢) .

ان هذا الافحاش المـكشوف فى الهجـاء يذكرنا بشعر أبي القاسم الواسـاني في منَشَّا اليهودي ، الذي كان واليـاً للعزيز الفاطمي في الشام(١٢٣) . وربما كان شيوع مذهب القرامطة فى الشام وفى العراق فى القرن الرابع الهجري هو المسئول عن ذلك السيل الفاحش من الهجاء المكشوف الذى يملأ كتاب (يتيمة الدهر) .

وبعـد ، فقـد طال الحـديث وامتد ولم نبـلغ ما نريد . فلعل باحثـاً يتفرغ لتتبع صلات المتنبى بالقبائل والأماكن التى ذكرها فى شعره من ناحية ، ولموقف هذه القبـائل والأماكن من دعوة القرامطة والاسماعيلية الفاطميـة من ناحيـة أخرى . وهو عمل شاق طويل ، ولكنه مفيد . وقد يؤكد تأكيداً قاطعاً ما ذهبنا اليه من فرض .

وأعود فى آخر الأمر فأختتم هذا الحديث بالكلمة العميقة المعنى البالغة الدلالة فى تصوير تواضـع

العلماء وبراءتهم من الغرور ، واقرارهم بالقصور .
وهى الكلمة التى تعود علماؤنا أن يختموا بها كلّ
رأي يذهبون اليه حين يقولون : « والله أعلم » ..

■■■

الحواشي المشار الى أرقامها في النص

(١) طائفة الاسماعيلية ص ٥٤ـ٥٧ ، ١٧٨ .

(٢) كشف أسرار الباطنية ص ١١ ، ٤٢ـ٤٤ .

(٣) فرق الشيعة ص٧٢ .

(٤) مختصر الفرق بين الفرق ١٤٢ـ١٤٤ .

(٥) الحاكم بأمر الله ص٥١ ـ كشف أسرار الباطنية ص١٧ ـ ـ ابن الأثير ٦ : ١٢٥ من حوادث سنة ٢٩٤هـ . وقد اختلفت الآراء في دينه . فمن قائل انه مجوسي . ومن قائل انه يهودي ومن قائل انه نصراني ديصاني . وأية ما كان الأمر فجمهور المؤرخين متفقون على أنه كان يكره الاسلام والعرب ، ويعمل على هدم دينهم ودولتهم . (راجع « الحاكم بأمر الله » ص٤٨ـ٥٣) .

(٦) طائفة الاسماعيلية ص١٤ .

(٧) راجع في ابن الأثير ج ٦ : ظهور أبي سعيد الجنابى في البحرين سنة ٢٨٦هـ ، وظهور ذكرويه بن مهرويه في الشام سنة ٢٨٩هـ . ومن المؤرخين من يرجع نشاة الدعوة الباطنية الى أيام المأمون ويجعل ثورة بابك (الخرّمى) من ثورات الباطنية والقرامطة . وقد كان الأفشين القائد العباسى المشهور يخفي ولاءه لهم ، ثم قتله المعتصم حين اكتشف حقيقته ـ التبصير في الدين ص٨٤ ، مختصر الفرق بين الفرق ص١٨٣ .

(٨) طائفة الاسماعيلية ص ١٤ـ٢٢ .

(٩) صحح نسبهم ابن الأثير وابن خلدون والمقريزي . وابن الأثير ـ مع تصحيحه نسبهم ـ يروى أخباراً غاية في البشاعة من أفعال القرامطة ، مع ما هو معروف من أنهم فرع من الدعوة الفاطمية . وابن الأثير لا يعتمد في تصحيح نسب الفاطميين الا على قوله « وسألت أنا جماعة من العلويين في نسبه ـ يقصد صاحب مصر ـ فلم يرتابوا في صحته » ولكنه لا يورد أسماء هؤلاء الذين سألهم . بينما يذكر أسماء الأشراف والعلماء الذين وقعوا المحضر العباسى القادح في نسب الفاطميين . كما ينقل عن الأمير عبد العزيز صاحب تاريخ افريقية والمغرب أن نسبهم معروف في اليهودية . ولا يعتمد ابن الأثير ـ عدا ما ذكره من شهادة بعض العلويين الذين لم يذكر أسماءهم ـ الا على شعر منسوب للشريف الرضى يقول فيه :

ما مقامي على الهوان وعندي | مقول صارم وأنف حمي
ألبس الذل في بلاد الأعادي | وبمصر الخليفة العلوي
من أبوه أبي ومولاه مولا | ي اذا ضامني البعيد القصي

مع أن ابن الأثير نفسه قد ذكر بعد ذلك في قصة هذه الأبيات أن الشريف الرضي أنكر نسبة الشعر اليه حين عاتبه أبوه فيه . ولكنه امتنع عن تكذيبه عند الخليفة خوفاً من بطش (الديلم والمصري والدعاة في البلاد) ـ ابن الأثير ٦ : ١٢٥ـ١٢٦ حوادث سنة ٢٩٦هـ . أما ابن خلدون فهو ـ مع اقراره بصحة نسبهم ـ يقر بكفرهم واباحتهم ويقول ان صحة نسبهم لا تغني عنهم من الله شيئاً في كفرهم ـ الحاكم بأمر الله ص٥٤ نقلا عن مقدمة ابن خلدون ـ أما المقريزى فهو في رأيه ناقل عن شيخه وأستاذه ابن خلدون ومتاثر به . ومع ذلك فهو الذي نقل في خططه عن مراتب الدعوة الفاطمية التسع ما لا يشك معه في أن دعوتهم تنتهي بالسالك فيها الى الكفر ، باسقاط كل التكاليف بعد تاولها ، وباعتقاد أن الفلاسفة أعلى طبقة من الأنبياء ـ الخطط ج ٢ ص ٢٢٧ـ٢٣٥ .

(١٠) الخطط للمقريزي ج ٢ ص ٢٢٧ـ٢٣٥ . وأقدم نص انتهى الينا فى انكار نسب الفاطميين ما نقله ابن النديم فى كتاب (الفهرست الذى ألفه سنة ٣٧٧هـ رواية عن أبي عبد الله محمد بن علي بن رزّام الكوفي فى كتاب له يرد فيه على الاسماعيلية ، كتبه فى خلافة العزيز بالله (٣٦٥ـ٣٨٦هـ) ويتفق مع ابن رزّام فى رد نسب الفاطميين وفى وصفهم بالحاد والاباحة ـ مع خلاف فى التفصيل ـ عبد القاهر البغدادي (المتوفي سنة ٤٢٩هـ) فى حديثه عن دعوى الباطنية من كتابه « الفرق بين الفرق » . وهناك روايات صريحة فى أن أصل الفاطميين مجوسى أو يهودى . منها رواية القاضى أبى بكر الباقلاني (المتوفي سنة ٤٠٣هـ) وهو ينسبهم وينسب القرامطة الى المجوسية . ومنها رواية ابن تغرى بردى فى كتابه « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » عن القاضى عبد الجبار البصري الذى ينسبهم الى اليهودية . ومنها رواية ابن الأثير والمقريزي عن الأمير عبد العزيز بن شداد بن تميم بن المعز ابن باديس صاحب « تاريخ افريقية والمغرب » وهو ينسبهم الى اليهودية أيضاً ، ويصفهم بالزندقة والالحاد والاباحة ، وبانهم أعداء الاسلام الذين أرادوا افساده بالتاويل والأحاديث الكاذبة . وينكر ابن حزم نسبهم الى آل البيت ويصفه بانه (كذب فاحش ودعوى مفتضحة) لأن محمد بن اسماعيل ابن جعفر لم يكن له قط ولد اسمه الحسين . ويوافقه فى ذلك ابن خلكان . واكثر الروايات المصرية المتاخرة تنكر نسبهم وفى مقدمتها النويرى (المتوفي سنة ٧٣٢هـ) وابن حجر (المتوفي سنة ٩٧٣هـ) . بينما تلزم التواريخ المصرية

في العهد الفاطمي الصمت ازاء هذه المسئلة . وقد جمع محمد عبد الله عنان هذه الأقوال في كتابه « الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية » في فصل طويل لخص فيه أقوالهم عنوانه « نسب الفاطميين بين المنكرين والمؤيدين » .

(١١) فرق الشيعة ص ٧٢ ـ الحاكم بأمر الله ص٢٨٨ نقلا عن أحمد بن محمد النيسابوري أحد دعاة الاسماعيلية .

(١٢) تاريخ الدولة الفاطمية ٣٨٥ وما بعدها ـ مختصر الفرق بين الفرق ١٧١ ـ التبصير في الدين ٨٣ . ومن المهم أن نذكر أن حصن القرامطة الذى الذى اتخذه حماد قرمط كان فى قرية من قرى الكوفة ، لأن شاعرنا الذى نتحدث عنه قد ولد فى الكوفة بعد ذلك بنحو ربع قرن سنة ٣٠٣هـ .

(١٣) تاريخ الدولة الفاطمية سنة ٣٨٨ .

(١٤) طائفة الاسماعيلية ٢٥ .

(١٥) طائفة الاسماعيلية ٢٩ .

(١٦) تاريخ الدولة الفاطمية ٣٩٦هـ .

(١٧) بل لقد كان الامام مبالغة منه في التستر يسمى الدعاة باسمه ويلقبهم بلقبه . والى هذه المبالغة فى التستر يرجع خروج القرامطة عن طاعته . فقد استطاعوا أن يعرفوا اسم الامام . وقابلهم صاحب هذا الاسم وبارك حركتهم . فلما عادوا اليه مرة اخرى وجدوا شخصاً آخر يحمل الاسم نفسه . فشك زعماء القرامطة فى الامام وفى الدعوة نفسها . وتكررت القصة نفسها مع أبى عبد الله الشيعي داعية الفاطميين الذى أسس دولتهم فى المغرب . فهم بالخروج عليهم حين رأى أن الامام الذى ظهر فى المغرب غير الامام الذى قابله من قبل فى (سلمية) ودعا اليه . وكاد ينجح فى حركته لو لم يبادر عبد الله المهدى الى قتله وقتل أخيه أبى العباس ـ طائفة الاسماعيلية ص ٢٥ـ٢٦ ، ١٥ .

(١٨) فرق الشيعة ص ٧٦ .

(١٩) الخطط ج ٢ ص ٢٢٧ عند كلامه عن وصف الدعوة وترتيبها .

(٢٠) طائفة الاسماعيلية ١٣٣ ـ ١٣٥ ـ ديوان المؤيد فى الدين ص ٥٤ ـ التبصير فى الدين ٨٦ـ٨٧ .

(٢١) طائفة الاسماعيلية ص ١٤٠-١٤٢ .

(٢٢) راجع نظام الدعوة ودرجاتها ، ونص العهد الذى يؤخذ على الداخل فى خطط المقريزى (مطبعة النيل بمصر سنة ١٣٢٤هـ) ج ٢ ص ٢٢٧-٢٣٥ .

(٢٣) الحاكم بأمر الله ص ٢٦٦ .

(٢٤) طائفة الاسماعيلية ١٦١ .

(٢٥) بل ان من غلاتهم من أمر أتباعه بطرح جميع التكاليف الدينية ، بزعم أن الامام هو المسئول الأول عن أتباعه ، وهو الذى يتحمل بدلهم الحساب ما داموا يطيعونه ويعتقدون امامته - طائفة الاسماعيلية ص ٨١ .

(٢٦) طائفة الاسماعيلية ص١٥٦-١٥٧ - ديوان المؤيد فى الدين ص ٦٩-٧١ ، ٨١-٨٩ .

(٢٧) طائفة الاسماعيلية ص١٦٤ - ديوان المؤيد ص٨٨-٨٩ .

(٢٨) طائفة الاسماعيلية ص١٥٧-١٥٨ - ديوان المؤيد ص٩٤-٩٦ - الحاكم بأمر الله ص٢٧١ - وراجع نظرية المثل والممثول فى ديوان المؤيد ١٠٦-١٠٨ وراجع الخطط للمقريزي ٢ : ٣٢٣ فى كلامه عن الدعوة الثانية وما بعده .

(٢٩) انتهى كلام دوزى ملخصاً . نقلا عن « الحاكم بأمر الله » ص٢٨٥ .

(٣٠) وقد ظل فى حيازتهم اثنتين وعشرين سنة قبل أن يردوه فى سنة ٣٣٩هـ - راجع ابن الأثير فى حوادث هذا العام ٦ : ٣٣٥ .

(٣١) وفى تاريخ أبى الفداء « المختصر فى أخبار البشر » تفصيل أكثر لفظائعهم فى هذا اليوم .

(٣٢) طائفة الاسماعيلية ص٩٢ وما بعدها - ابن الأثير ٦ : ١٧٧ حوادث سنة ٣١٢هـ فى مساعدة ابن الفرات وزير المعتضد للقرامطة ، ٦ : ١٩٤ حوادث سنة ٣١٦هـ فى اظهار القرامطة أنفسهم بعد غارات أبى طاهر على السواد .

(٣٣) تراجع أمثلة لغارات أبى طاهر القرمطي على الحجاج فى ابن الأثير سنة ٣١٢ ، ٣٢٣هـ ٦ : ١٧٧ ، ٢٤٩ . ومثال آخر فى غارة ذكرويه عليهم

سنة ٢٩٤ـ٦ : ١١٥ . وتراجع أمثلة فى غارات القرامطة على المدن فى المرجع السابق : غارتهم على الكوفة سنة ٢٩٣هـ (٦ : ١١٤) ، سنة ٣١٥هـ (٦ : ١٨٦) ، سنة ٣٢٥ (٦ : ٢٥٩)، وعلى بلاد الجزيرة سنة ٣١٦ هـ (٦ : ١٩١) ، وعلى دمشق سنة ٢٩٠هـ(٦ : ١٠٤) ، وعلى مدن الشام سنة٢٩٣ (٦ : ١١٣) ، وعلى المدن والقرى فى البحرين سنة ٢٨٧هـ (٦ : ٩٤) .

ويراجع فى اباحتهم الفروج واتيان الذكران وترك الصلاة والصيام وغيرها من العبادات مختصر الفرق بين الفرق ص١٧٥ ، وتاريخ ابن الأثير فى حوادث سنة ٣٢٢هـ عند كلامه عن مذهب الشلمغانى الذى أحدث مذهباً غالياً فى التشيع (٦ : ٢٤١ـ٢٤٢) ، وسنة ٣٠١ عند كلامه عن قتل أبى سعيد الجنابى حين راود غلامه عن نفسه فى الحمام (٦ : ١٤٧) . وراجع قصة المرأة التى وقعت فى معسكر القرامطة حين كانت تبحث عن ولدها الذى استغووه ، فى حوادث سنة ٢٩٠ (٦ : ١٠٥) . وراجع كذلك ما رواه محمد بن مالك الحمادى اليمانى مما عاينه بنفسه من فضائحهم فى كتابه (كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة) ولا سيما ص ١١ـ١٦ . وراجع كذلك النوبختى فى كتابه (فرق الشيعة) ص٧٤ ، وفضائح الباطنية للغزالى .

(٣٤) تاريخ الدولة الفاطمية ص٢١٠ .

(٣٥) الحاكم بأمر الله ص٨١ .

(٣٦) الحاكم بأمر الله ص٨٦ . وراجع أمثلة فى كتاب (تاريخ الدولة الفاطمية) ص٢٠٢ـ٢١٥ . وراجع أمثلة لتشددهم مع أهل السنة من المسلمين فى ص٢١٩ . وراجع كتاب (الحاكم بأمر الله) ص٨٠ ، ٨١ ، ٨٦ .

(٣٧) راجع فى تطور دعوتهم وتلونها كتاب (طائفة الاسماعيلية) ص١٤٧ـ١٥١ . وراجع فى استعمالهم أبجدية خاصة (ديوان المؤيد فى الدين) ص ١٣١ .

(٣٨) دائرة المعارف الاسلامية ـ مادة « المتنبى » .

(٣٩) ذكرى أبى الطيب ص٤٢ .

(٤٠) ذكرى أبى الطيب ص ٥٢ـ٦٠ ، ٢٤٢ـ٢٤٣ .

(٤١) ديوان المؤيد في الدين ص٣٧ .

(٤٢) الديوان ـ نشر عزام : ص٢٠٩ .

(٤٣) الديوان ـ نشر عزام : ص٤٧٥ .

(٤٤) الديوان ص ١٧٠ .

(٤٥) الديوان ص ٤٧٨ .

(٤٦) وهنا نجد الكتاب مصدراً للثقافة عند المتنبى . ومصدر الثقافة والمعرفة عند القرمطى هو الامام وما يسمونه علم الباطن وهو عندهم علم الحقيقة .

(٤٧) الديوان ص ٥١٩ .

(٤٨) الديوان ص ٢٠٩ ، ٢ وقد جاء في القصيدة الأولى :

كذا الفاطميون الندا في أكفهم أعز أمحاء من خطوط الرواجب

وقد فهم بعض الباحثين من هذا البيت أن المتنبي يذكر الفاطميين أصحاب الدولة المعروفة في المغرب ومصر . والواقع أن المتنبى لم يقصد من كلمة (الفاطميين) الا العلويين . وقد عرض المتنبى بالفاطميين في أكثر من موضع في شعره .

(٤٩) الديوان ص ٨٤ .

(٥٠) بحيرة طبرية .

(٥١) الديوان ص ١٩٥ .

(٥٢) الديوان ص١٩١ . ولم يسم الديوان المقصود بهذا الشعر . ولكنه أشار الى أن المقصود هم بعض العلويين من ولد العباس في طبرية . وأكثر الأعلام الواردة في هذه الفترة التى سبقت اتصال المتنبى بسيف الدولة مجهول . وأياً ما كان المقصود بالأبيات فهى فى الوقت نفسه صالحة لأن تكون فى الفاطميين ، فهم يدعون الانتساب لمحمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق . والتاريخ لا يعرف لمحمد هذا نسلا .

(٥٣) الديوان ص ٢٠٩ .

(٥٤) الديوان ص ١٢٨ .

(٥٥) القتد خشب الرحل . الغرير فحل كريم تنسب له الابل . الجلال العظيم .

(٥٦) الديوان ص ١٥٣ .

(٥٧) الديوان ص ١٥٥ .

(٥٨) السبروت الأرض التى لا نبت فيها .

(٥٩) مكن الضب بيضه .

(٦٠) الديوان ص ٤٥٦ .

(٦١) الديوان ص٥٤٧ . وراجع كذلك قصيدته الميمية ص٥١٠ . وراجع في وصف الرحلة ص٤٨٨ـ٤٩٦ .

(٦٢) جعل طه حسين هذا الشعر الثائر مظهراً لتأثر الشاعر بمذهب القرامطة .

(٦٣) الديوان ص ٣ .

(٦٤) الديوان ص ٢٨ .

(٦٥) الديوان ص ١٤٩ . جرش فى جنوب شرقي طبرية ، وفى شمال عَمَّان .

(٦٦) ديوان المتنبى ص ١٧٤ .

(٦٧) الطمرة الفرس الوثابة . الحيزوم الصدر أو الخصر . الغمر الحقد .

(٦٨) ديوان المتنبى ص ٨٤ .

(٦٩) الديوان ص ٩٢ .

(٧٠) الثمام نبت ضعيف .

(٧١) الديوان ص ٤١٧ .

(٧٢) الديوان ص ٤٢٧ .

(٧٣) المتنبى لمحمود شاكر ص ٧٨ـ١١٥ ، ٢ : ١٨٦ـ١٩٥ .

(٧٤) ذكرى أبي الطيب ص ٥٢ـ٦٠ . وفي تقدير عزام أن رواية الخطيب البغدادي كانت أصلاً لمعظم الروايات التى رويت فى ادعاء المتنبى النبوة .

(٧٥) مع المتنبي ص ٩٧ـ٩٩ .

(٧٦) الديوان ص ١٣٧ ، ١٥٣ ، ٦٧ وذلك قوله :

وأنهَ المُشيرَ عليك فيّ بضَلّةٍ ... فالحُـــرُّ ممتحَنٌ بأولاد الزِنا
واذا الفتى طرح الكلام مُعرّضاً ... في مجلس أخذَ الكلام اللذّ عنيَ
... أمسى الذى أمسى بربك كافراً ... من غـــيرنا معنا بفضلك مؤمناً

وقوله : (ص١٥٣) :

فيا ابن كَرَوَّس يانصفَ أعمى ... وأن تغضب فيا نصف البصـــير
تعادينـــا لأنا غـــير لُـــكن ... وتبغضنا لأنا غـــير عـــور

وقوله على لسان التنوخيين في ابن عم لهم مات ، زعم اليهودي أنهم شمتوا فيه : (ص٦٧) :

رثى ابنَ أبينا غيرُ ذى رحم لنا ... فباعدنا عنه ونحـــن الأقارب
وعرّضَ أنا : شامتون بموته ... والا فـزارت عارضَية القواضب
أليس عجيباً أنّ بينَ بَنِي أب ... لنجلِ يهوديَ تَدِبُّ العقـــارب

(٧٧) الديوان ص ١٣ . ولنذكر أن (نحلة) كانت قرية لبني كلب . وأن بني كلب من القبائل التى استغواها القرامطة ـ ابن الأثير ٦ : ١١٣ـ١١٤ حوادث سنة ٢٩٣ .

(٧٨) لأمة فاضة درع واسعة فضفاضة . أضاة براقة كالغدير . دلاص لينة ملساء .

(٧٩) الديوان ص ٥٥٢ .

(٨٠) الضمير الأول لصاحبته ، والثاني للخمر .

(٨١) عانة قطيع من حمر الوحش . مقزعة متفرقة .

(٨٢) الديوان ص ١٥٣ .

(٨٣) الديوان ص٤٣٩ .

(٨٤) ص٤٤٤ .

(٨٥) ص ٤٦٤ .

(٨٦) ص ٤٤٦ .

(٨٧) ص ٤٥٠ .

(٨٨) الديوان ص ٤٥٠ .

(٨٩) الديوان ص ٥١٠ .

(٩٠) الديوان ص ٢٧ .

(٩١) الديوان ص ١١١ .

(٩٢) الديوان ص ١٥٥ .

(٩٣) ص ٣١٠ .

(٩٤) ابن الأثير ٦ : ١٩٤ حوادث سنة ٣١٦ .

(٩٥) ففي حوادث سنة ٢٩٠ تحدث عن مطاردة الحسين بن حمدان (عم سيف الدولة) للقرمطي صاحب الشامة في بادية الشام وأسره وقتله (٦ : ١٠٨) . وفي حوادث سنة ٢٩٣ تحدث عن مطاردة الحسين بن حمدان للقرامطة في بادية السماوة وهزيمتهم (٦ : ١١٣ ـ ١١٤) . وفي حوادث سنة ٢٩٤ تحدث عن ايقاعه بأصحاب ذكرويه بن مهرويه في الشام (٦ : ١١٧ـ١١٨) . وفي سنة ٣١٢هـ تحدث عن حراسة أبي الهيجاء بن حمدان (والد سيف الدولة) طريق الكوفة للحج وأسر أبي طاهر القرمطي له (٦ : ١٧٧) . وفي حوادث سنة ٣١٥هـ تحدث عن استيلاء أبي طاهر القرمطي على الأنبار وتهديده بغداد ، واشارة أبي الهيجاء بن حمدان على مؤنس المظفر أن يقطع القنطرة الموصلة الى بغداد . وبذلك نجت العاصمة من القرامطة .

(٩٦) الديوان ص ٢٥٨ .

(٩٧) ابن الأثير . حوادث سنة ٢٩٠هـ (٦ : ١٠٤) .

(٩٨) والى مثل ذلك أشار أبو فراس في حرب سيف الدولة للقرمطى الذى كان يُدعَى بالمبرقع حين أغار على (حمص) وأسر أبا وائل تغلب بن حمدان. فنهض اليه سيف الدولة وأوقع به وقتله . وعاد يحمل رأسه فوق رمحه . وذلك قول أبي فراس الحمداني : (يتيمة الدهر للثعالبي ١ : ٢٤ في أخبار سيف الدولة) .

وانقذَ مِن مَسٍّ الحديد وثقله أبا وائل والدهرُ أجدعُ صاغرُ
فآب ورأسُ القرمطي أمامَه له جسد من أكعُبِ الرمح ضامرُ

(٩٩) الديوان ٣١٠ .

(١٠٠) الديوان ص٣١٨ . وقد تسلط البويهيون على الخلافة منذ سنة٣٣٤هـ ، وضُربت ألقابهم على النقود . وقد كان البويهيون من غلاة الشيعة . وكانوا متعصبين لمذهبهم الشيعي . وقد حملوا الناس على الاحتفال باعياد الشيعة ، مثل الغدير وعاشر المحرم . وكان العداء مستحكماً بين البويهيون وبين الحمدانيين . وكان هذا العداء راجعاً الى تنافسهم من ناحية ، والى ما بينهم من خلاف مذهبي من ناحية أخرى . وقد همّ معز الدولة بن بويه بتحويل الخلافة من العباسيين الى العلويين . ثم رجع عن ذلك لاعتبارات سياسية نبهه اليها بعض خواصه ـ تاريخ الأمم الاسلامية (الدولة العباسية) للخضري . الطبعة الرابعة ص ٣٧٨ ، ٣٨٢ .

(١٠١) ص ٣٥٨ .

(١٠٢) الديوان ص ٤١٧ .

(١٠٣) الديوان ص ٤٢٧ .

(١٠٤) الديوان ص ٥٤٧ .

(١٠٥) كتب أول هذه المحاضر في عهد الخليفة العباسى القادر بالله سنة ٤٠٢هـ ـ وهو معاصر للحاكم بامر الله الفاطمي . وقد وقع المحضر كبار الفقهاء والقضاة وبعض زعماء الشيعة . ويتضمن المحضر الطعن في نسب الفاطميين ، وأنهم ديصانية وينتسبون الى ميمون بن ديصان القداح ، وأنهم كفار زنادقة وفساق ملاحدة ، أباحوا الفروج وأحلوا الخمور وسبّوا الأنبياء وادعوا الربوبية . ثم صدر ببغداد محضر آخر سنة ٤٤٤هـ يتضمن المطاعن نفسها ، ويزيد عليها أن الفاطميين يرجعون الى أصل يهودي أو مجوسي ، ثم صدر محضر ثالث يؤكد المحضرين السابقين سنة ٤٤٨هـ ـ تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٠٩ـ٤١١ ، الحاكم بامر الله ص ٥٥ـ٥٦ .

(١٠٦) راجع تفصيل ذلك في (الصبح المنبى عن حيثية المتنبى) للبديعي ص٤٨ الى ٤٩ ، ٥٠ ، ٢٣ الى ٢٨ ، ٣٢ الى ٣٣ ، ٨١ .

(١٠٧) الصبي المنبى ص ٧٣ـ٨٠ وراجع مثل ذلك أيضاً في قصته مع أبى فراس ص ٨٢ـ٨٣ .

(١٠٨) راجع أسماء الكتب في (الصبح المنبى) ص ٨٢ ، ١٦١ .

(١٠٩) ابن الأثير ٦ : ١٢٥ حوادث سنة ٢٩٤هـ .

(١١٠) الديوان ص ٨ .

(١١١) ذكرى أبي الطيب ص ٣٨ .

(١١٢) وبنى طه حسين على ذلك أن المتنبي قد اضطر للجلاء عن الكوفة بعد جلاء القرامطة ، فذهب الى بغداد داعية للمذهب القرمطي . وقد بنى الباحث ذلك على أنه مدح محمد بن عبد الله العلوى بقصيدته (أهلا بدار سباك أغيدها) ووصف فيها فراره من الكوفة سيراً على الأقدام . والواقع أن الممدوح بهذه القصيدة لم يكن في بغداد ، ولكنه كان في ظاهر الكوفة، كما حققه عبد الوهاب عزام (ذكرى أبي الطيب ص٤٦) . وربما كان ما ذكره في القصيدة من وصف رحلته سيراً على الأقدام وصفاً لعودته من البادية الى الكوفة .

(١١٣) ذكرى أبي الطيب ص ٣٥ .

(١١٤) تاريخ الدولة الفاطمية ص ٣٨٦ .

(١١٥) ابن الأثير ٦ : ١٠٥ حوادث سنة ٢٩٠هـ ، الطبري ٨ : ٢١٩ .

(١١٦) ذكرى أبي الطيب ص٣٨ .

(١١٧) ديوان أبي الطيب المتنبي ص٤٦ . وقد أثبتها الشاعر من بعد اجابة لرغبة بعض أهل الأدب .

(١١٨) الديوان ص ٣٨٦ .

(١١٩) الديوان ص ١٥٩ .

(١٢٠) الديوان ص ٢١٨ ، ٥١٤ .

(١٢١) الديوان : حاشية ص ٥١٩ .

(١٢٢) الديوان ص ٥٨٧ .

(١٢٣) تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٠٢ ـ يتيمة الدهر للثعالبي ج ١ ص ٣٣٦ ، ٣٤٩ الى ٣٥٥ .

المراجع التى ورد ذكرها فى الحواشى

١ - تاريخ الأمم والملوك (ج٨) للطبري - مطبعة الاستقامة بمصر ١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م .

٢ - تاريخ الدولة الفاطمية - لحسن ابراهيم - الطبعة الثانية ١٩٥٨م .

٣ - التبصير في الدين - للأسفراييني - مطبعة الأنوار بمصر ١٣٥٩ هـ - ١٩٤٠ م .

٤ - الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية - لمحمد عبد الله عنان . الطبعة الثانية ، لجنة التاليف ١٣٧٩هـ - ١٩٥٩ م .

٥ - الخطط للمقريزي : راجع (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) .

٦ - ديوان أبى الطيب المتنبى - تحقيق عبد الوهاب عزام - مطبعة لجنة التاليف ١٣٦٣هـ - ١٩٤٤م .

٧ - ديوان المؤيد في الدين داعى الدعاة تقديم وتحقيق محمد كامل حسين - مطبعة الكاتب المصري عام ١٩٤٩م .

٨ - ذكرى أبى الطيب - لعبد الوهاب عزام - الطبعة الثالثة - المعارف بمصر ١٩٦٨م .

٩ - الصبح المنبي عن حيثية المتنبى - للبديعي - مكتبة عرفة بدمشق ١٣٥٠هـ .

١٠ - طائفة الاسماعيلية - لمحمد كامل حسين - مطبعة لجنة التاليف - ١٩٥٩م .

١١ - فرق الشيعة - للنوبختى - المطبعة الحيدرية في النجف ١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦م .

١٢ - الكامل في التاريخ (ج٦) لابن الأثير - المطبعة المنيرية بمصر ١٣٥٣هـ.

١٣ – كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ـ لمحمد بن مالك الحمادي اليماني ـ مطبعة الأنوار بمصر ١٣٥٧هـ ـ ١٩٣٩ م .

١٤ – المتنبي لمحمود شاكر ـ مطبعة المدني بالقاهرة ١٣٩٧هـ ـ١٩٧٧م .

١٥ – محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية (الدولة العباسية) للخضري ـ الطبعة الرابعة ١٣٥٣هـ ـ ١٩٣٤م .

١٦ – مختصر الفرق بين الفرق للبغدادي (اختصار الرسعني) ـ مطبعة الهلال بمصر ١٩٢٤م .

١٧ – مع المتنبي ـ لطه حسين ـ المعارف بمصر ـ الطبعة العاشرة .

١٨ – المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (ج ٢) للمقريزي ـ مطبعة النيل بمصر ١٣٢٤هـ .

١٩ – يتيمة الدهر ـ للثعالبي ـ مطبعة حجازى بمصر ١٣٦٦هـ ـ ١٩٤٧م .

■□■



فهــرس مفصــل

المتنبي في كتب القدماء والمعاصرين ٥
من هم القرامطة ٦
القرامطة في كتب التاريخ والفِرَق ٧
الامامة عند الشيعة تورث ولا تكتسب ٩
أثر ابن سبأ في افساد التشيع ١٠
الاسماعيلية والامامة ١٠
الدولة الفاطمية وخلاف المؤرخين حول نسبهم ١٢
القرامطة شعبة من الاسماعيلية ١٣
خروج القرامطة على الفاطميين ١٤
الدعوة الباطنية بشعبتيها ـ القرمطية والفاطمية ـ
دعوة هدامة ١٥
جهاز الدعوة الباطنية الاسماعيلية ١٥
التأويل هو الباب الذي يدخل منه الباطنية الى أغراضهم
الهدامة ٢٠

عقـائد الباطنيـة مزيج من المذاهب والآراء الفلسـفية القديمة ٢٢

القرامطة يتحولون الى قوة ارهابية مدمرة ٢٣

أين مـكان المتنبى من الصـورة التى قدمها المؤرخـون للقرامطة ٢٧

التاريخ والأدب بين السلف والمعاصرين ٢٧

المتنبى في الدراسات المعاصرة لتاريخ الأدب ٣٠

المتنبى عدو للقرامطة ٣٤

القيم التى مجدها المتنبى تتعارض مع النظرية الشيعية التى تعتمد على الوراثة ولا مكان فيها للكسب ٣٤

شعر المؤيد في الدين داعى الدعاة مثل حي لتصوير هذه القيم ٣٥

المتنبى يعول في شعره على الكسب لا الوراثة ٣٧

المتنبى يتهكم ببعض العلويين ٤١

شعر المتنبى ملىء بذكر الكائدين الذين يتعقبونه في كل مكان ٤٤

هل كانت العداوات التى أكثر من الاشارة اليها في شعره شخصية أم سياسية ٤٨

ثورة المتنبى على الفساد الاجتماعى والسياسى ٤٨
قصة ادعاء النبوة ٥٣
عداوة المتنبى للعناصر الدخيلة واتصاله بالحمدانيين
أعداء الفاطميين ٥٤
تَوقُّر المتنبى وترفعه على خلاف أهل عصره ٥٥
كثرة ذكره للأنبياء وتشبيهه نفسه بهم ٥٥
حسد المعاصرين من الشعراء له ٥٦
تعارض النصوص التى وردت في ادعاء النبوة ٥٧
شعره الذى قاله في السجن يخلو من الاشارة الى هذه التهمة ٥٨
نذر المتنبى نفسه لتنبيه الناس الى خطر القرامطة ٥٩
كان المتنبى يسعى الى تغيير النظام السائد من طريقين :
طريق العنف ، وطريق السياسة ٦٢
المتنبى في قرية (نحلة) أولَ عهده بالشام ٦٣
اتصال المتنبى بشيوخ القبائل ٦٥
اتصاله بذوى النفوذ والسلطان للظفر بولاية ٦٦
شعر حزين يعبر عن فشل المتنبى في تحقيق آماله ٦٨

كتمان المتنبى حقيقة أهدافه ٧١

شواهد من شعر المتنبى على عدائه للقرامطة ٧٤

الشكوى التى تملأ شعر المتنبى أليق بعدو القرامطة منها بالداعية القرمطى ٧٩

واجه المتنبى كيداً منظماً طارده على امتداد حياته ٨١

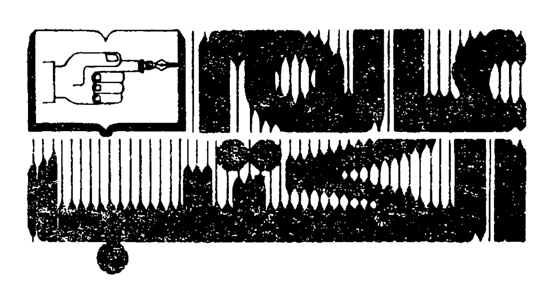
قصيدة للمتنبى تعارض ما ساد شعره من عداء القرامطة ٨٣

هل خضع المتنبى لمؤثرات قرمطيـة في مُستهلّ حيـاته ؟ وهل شاركته أسرته في ذلك ؟ ٨٥

أدلة على صحة هذا الفرض ٨٦

الحواشى المشار الى أرقامها في النص ٩٧

المراجع التى ورد ذكرها في الحواشى ١٠٩





« مجـلة الثقـافة »

مجـلة فـكرية جامعـة

■□■

تصدر في دمشق

تعنى بالأدب والفكر في العالم العربي جميعه

■□■

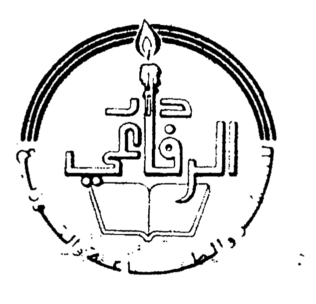
قيمة الاشتراك

مائة ليرة سورية

ترسل الى ادارة المجلة

سورية ـ دمشق

ص.ب : ٢٥٧٠



المقر الرياض ـ الملز ـ تفرع شارع جرير ص.ب (١٥٩٠)

تلفون ٤٧٧٧٢٦٩ ـ برقياً : دار الرفاعى

المملكة العربية السعودية


مطابع الروضة
جدة: عمارة باخشب أمام الهاتف الآلي ت: ٢٧٩٢١٢

الكاتب بقلمه

بسم الله الرحمن الرحيم



ولدت في سوهاج، من مدن الصعيد في مصر سنة ١٩١٢م. وتلقيت تعليمي الابتدائي والثانوي فيها، باستثناء السنة الأولى الثانوية، التي قضيتها بمدرسة أسيوط الثانوية، لأنها كانت المدرسة الثانوية الوحيدة في صعيد مصر وقتذاك. وحصلت على الليسانس سنة ١٩٢٧م من قسم اللغة العربية في الجامعة المصرية - وكذلك كان اسمها، لأنها كانت الجامعة الوحيدة في مصر وفي البلاد العربية وقتذاك. وعينت معيدا في الكلية في السنة نفسها، وكلفت بتدريس اثني عشر درسا أسبوعيا في السنة الأولى، وكانت هذه هي السابقة الأولى التي يعين فيها معيد في سنة تخرجه ويكلف بالتدريس. ثم حصلت على الماجستير والدكتوراه، وانتدبت للتدريس في كلية الآداب بالإسكندرية سنة ١٩٤٠م وكانت وقتذاك فرعا من الجامعة المصرية في القاهرة، ثم نقلت إليها بعد استقلالها سنة ١٩٤٢م وتدرجت في وظائف التدريس بها إلى أن شغلت كرسي الأستاذية سنة ١٩٥٤م وأعرت أستاذا عملي إلى الجامعة الليبية وجامعة بيروت العربية، ثم تعاقدت مع جامعة بيروت العربية بعد بلوغي سن التقاعد سنة ١٩٧٢م، وظللت بها إلى أن تعاقدت مع جامعة محمد بن سعود الإسلامية سنة ١٩٧٦م حيث أعمل الآن.

٢ رجب ١٤٠١
(٦/٥/١٩٨١م)

مطابع الروضة ـ جدة